تفسير الصحابة

د. عبد الله أبو السعود بدر
جامعة القاهرة
كلية التربية (بالفيوم)



دار ابن حزم

تفسير الصحابة

د. عبد الله أبو السعود بدر
جامعة القاهرة
كليـة التربية (بالفيوم)

دار ابن حزم

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وبعد:

فعلى الرغم من مدى أهمية موضوع «**تفسير الصحابة**» وقيمته في تاريخ التفسير وعلوم القرآن، إلا أنه لم ينل حظه من البحث، ولم تعالج مسائله وقضاياه معالجة شاملة، ولم يكتب فيه إلا صفحات قليلة داخل كتب علوم القرآن، ولم يفرد وحده بالتصنيف، واكتفي فيه بتكرار وجهات نظر قديمة.

وهذه محاولة متواضعة لدراسة تفسير الصحابة، اجتهدت فيها أن أقف على دوافع التفسير عند الصحابة وأسبابه. وأن أرصد معالمه وسماته الرئيسية، وأتبين اتجاهاته ومناهجه، وأتعرف على مصادره وأدواته الأساسية.

وقد اهتممت في هذه الدراسة بأهم قضايا التفسير

عند الصحابة ومواقفهم حيالها وإبداعهم العقلي، ومنها موقفهم من تفاسير القصاص الشعبيين، ومن تفسير الآيات المتشابهة، ومن الإسرائيليات، ومن التفسير السياسي والمذهبي الذي ظهر في عصرهم، ورددت على شبه المستشرقين في ذلك، وركزت على تبيين أصول التفسير عند الصحابة ومصادره وأدواته، كماحددت أهم اتجاهات الصحابة في التفسير، ومناهجهم الفكرية التي سلكوها وأثروا بها فيمن بعدهم من المفسرين والعلماء.

ولقد اعتمدت في البحث على الأمثلة التي تصور نشاط الصحابة التفسيري وتبرز طوابع تفسيرهم ومميزاتهم، واهتممت بتخريجها من مظانها الأصلية، وقد استند البحث إلى طائفة كبيرة من المصادر القديمة الأصلية.

والله الموفق.

د/ عبدالله أبو السعود بدر

الفصل الأول

الدوافع

١ ـ القرآن:

لم تكن نظرة الصحابة رضوان الله عليهم إلى القرآن الكريم نظرة محدودة بدائرة ضيقة تقتصر على الجانب الخاص بالعبادات فيه وإقامة الشعائر الدينية فحسب ـ بل كانت نظرتهم إلى هذا الكتاب الكريم نظرة واسعة وعميقة تشمل ـ إلى جانب العبادات والشعائر ـ العقائد والأحكام والتشريعات والمعاملات والأخلاق والآداب. وذلك لأنهم أقاموا نظرتهم إليه على أساس أنه دستور إلهي علوي، يعلو ولا يعلى عليه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، هدفه إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وإقامة حياة جديدة على أسس قويمة من الحق والخير والجمال، تختلف كل الاختلاف عن حياة الجاهلية التي كانت سائدة قبله، ورزح الناس فيها تحت

نير العبودية والظلم والامتهان والفساد. من هنا جاء تمسك الصحابة بالقرآن الكريم، لأنهم عاشوا حياة قرآنية فتحت أعينهم على حقائق عظمة التوحيد وكرامة الإنسان، فذاقوا فيها طعم الحب الإلهي، والتصالح مع النفس، والتوافق مع الجماعة المؤمنة على قلب واحد، والإحساس الواعي بالكون من حولهم وظواهره ومكانتهم فيه وعلاقتهم به. وعلى هذا الأساس كان القرآن الكريم يمثل للصحابة رضوان الله عليهم النور الكاشف الذي يهدي إلي الصراط المستقيم، والأمل الوحيد الذي يضمن لهم الاستمرار على هذا الصراط وعدم الميل عنه. لذلك آمن الصحابة بالقرآن الكريم كتاباً من عند ربهم وشرعة ومنهاجاً، وصدقوا ماجاء به، وعايشوا تنزيله، وواكبوا وحيه، وتابعوا أحداثه، وتعلقت به أرواحهم، وأشربوا في قلوبهم حبه، وشغلت به عقولهم، فأودعوه ضمائرهم ومهجهم، وطووا عليه أحناء ضلوعهم، وحفظوه في صدورهم، واستظهرته ألسنتهم، وتلوه آناء الليل وأطراف النهار، ودافعوا عنه بكل ما أوتوا، وضحوا في سبيل نصرته بحياتهم، وبذلوا من أجل إعلاء رايته دماءهم وكل غال من ولد وأهل ومال. لذلك كله لم يقتصر الصحابة رضوان الله عليهم من القرآن الكريم على جانب العبادات فقط، ولم يفصلوا بينه وبين نواحي حياتهم ومتطلباتها، بل تمثلوه في كافة أحوالهم ومعايشهم، واسترشدوا به في

نظمهم وقضاياهم، واستلهموا منه سلوكهم وأمورهم على هدي من أوامره فيلتزمونها ونواهيه فينتهون عنها. وهكذا كان القرآن الكريم هو المحور الأساس الذي دارت حوله حياة الصحابة رضوان الله عليهم، وحجر الأساس الذي أقاموا عليه بنيان الدولة الإسلامية وكيانها بعد أن انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه.

وبناء على ذلك، كان لزاماً على الصحابة أن يتدبروا معاني القرآن الكريم، وأن يستوضحوا أحكامه، لكي يتيسر لهم أن ينفذوا أوامره وينتهوا عن نواهيه، وأن يميزوا به الحق من الباطل والحلال من الحرام، حرصاً منهم على إقامة شرع الله.

والعمل بالقرآن لا يمكن أن يتم إلا بعد الفهم الصحيح له، لذا كان العلم بالقرآن ـ من أجل العمل به كدستور حياة مقدس ـ من أهم الدوافع التي أدت إلى قيام نشاط تفسيري خصب ومبدع في عهد الصحابة.

ولم يكن حرص الصحابة رضوان الله عليهم على علم القرآن والعمل به إلا امتثالاً منهم لما أمرهم به ربهم وبلغهم نبيهم ﷺ. فالقرآن الكريم لم يكن قط كتاباً ضد العلم والمعرفة، ولم يكن قوامه أساطير الأولين أو الخرافات، وإنما هو كتاب قائم على العلم، وباعث للعقل، وموجه للفكر، وداع إلى المعرفة، وحاث على

النظر، ودافع إلى التدبر، ومحارب للجهل، وعدو للتخلف، ونابذ للخرافات، ومبدد للأوهام، وساحق للأباطيل، وذام للجهال، وزاجر للمتعالمين الأدعياء.

إن أول كلمة نزلت من القرآن الكريم هي كلمة «اقرأ» وهي دعوة صريحة واضحة للعلم والمعرفة، وقد جاءت هذه الكلمة في صيغة فعل الأمر لتأكيد المفهوم، وللدلالة على أهمية العلم، وعلى هوية هذا الدين الجديد الذى يقوم على العلم ويحث عليه، ويعادي الجهل والتخلف.

وأقسم الله تعالى بأدوات العلم ورموز المعرفة وهي الدواة والقلم والكتاب، قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾[2].

ودعا القرآن إلى العلم بمعناه الواسع المطلق أي الشامل لكل أنواع المعرفة، كما دعا أيضاً إلى استخدام هذه المعارف بما يخدم مصالح الإنسان في دينه ودنياه، فهو لم يقصر دعوته على علوم معينة يؤثرها بالتشجيع ويهمل ما عداها، بل دعا بقوة إلى التفكير في خلق

---

(١) سورة القلم: ١.

(٢) سورة الطور: ١، ٣.

السموات والأرض، والنجوم والكواكب، والجبال والبحار، والإبل والأنعام.. مما يدخل في نطاق علوم عديدة مثل الفلك والفضاء والجيولوجيا والفيزياء والحيوان والنبات والطب والهندسة.. وغير ذلك، أي أن القرآن الكريم لم يقصر دعوته إلى العلم على العلوم الدينية فقط، ولم يفرق في الأهمية بين العلم الروحي والعلم المادي فكل منهما عنده صنو للآخر لا يقل عنه قيمة وشأناً.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[2]. وقال تبارك: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[3].

وإذا كانت هذه الآيات صريحة في الدعوة إلى العلم بالدين، فإن هناك أيضاً في المقابل آيات أخرى تدعو إلى العلم في كافة ميادين المعرفة. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[4]. وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا

---

(١) سورة التوبة: ١٢٢.
(٢) سورة ص: ٢٩.
(٣) سورة محمد: ٢٤.
(٤) سورة الأعراف: ١٨٥.

فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾[1]. وقال تبارك: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾[2].

وقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾[3]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا

---

(١) سورة الشعراء: ٧ ـ ٨.

(٢) سورة الزمر: ٢١.

(٣) سورة الغاشية: ١٧ ـ ٢١.

(٤) سورة ق: ٦ ـ ١١.

﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾[1].
وقال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[3].

هذه بعض الآيات التي توجه الفكر الإنساني نحو آفاق واسعة مختلفة من المعرفة تثبت أن دعوة القرآن إلى العلم كانت دعوة شمولية وموضوعية وحرة، لا تقتصر على علوم الدين فقط دون سائر العلوم الأخرى، ولا تقيد حرية اختيار البحث، ولا تجبر على دراسة الدين والاقتصار عليه وحده، بل تستنفر للتفقه فيه طائفة فقط، ولا تعيب على باقي العلوم موضوعاتها واهتمامها، ولا تنقص من قيمتها وأهميتها، بل تشيد بفضلها وتحث على دراستها وتشجع على الإقبال عليها، ولا تستحي من دراسة بعض العلوم، ولا تجعل من بعضها سراً مكتوماً على كهنة به مختصين، بل الدعوة إلى العلم في القرآن

---

(١) سورة نوح: ١٥ ـ ١٦.
(٢) سورة الحج: ٤٦.
(٣) سورة البقرة: ١٦٤.

عامة لكل ذي عينين ولكل ذي عقل سديد.

هذا عن العلم في القرآن، وأما عن العلماء فلقد أكرمهم القرآن وأعزهم، وأجلهم ورفع أقدارهم. فقد أمر الناس بالتوجه إليهم وسؤالهم عما يجهلون فجعل لكلمتهم المكانة العليا، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. وبشرهم برفع درجاتهم، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[2]. وعينهم من بين سائر العباد بأنهم الذين يخشون الله، وذلك في تركيب لغوي وبياني براق يغري الخيال للوهلة الأولى بتصور لا معقول للعلماء من الشموخ والتسامي، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[3]، وأعطاهم شهادة فخر أي فخر بأنهم وحدهم الذين يفهمون مغزى ما يضربه الله من الأمثال، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[4].

والعلماء هم أصحاب المرتبة الثالثة من الشهود على الحقيقة الأبدية الوحيدة الخالدة وهي حقيقة وحدانية الله،

---

(١) سورة النمل: ٤٣.

(٢) سورة المجادلة: ١١.

(٣) سورة فاطر: ٢٨.

(٤) سورة العنكبوت: ٤٣.

بعد الله عز وجل وملائكته، وهذا غاية التكريم والإكرام للعلماء وكلمتهم وشهادتهم إذا كانت مطابقة للحق الذي لا مراء فيه، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[1]. وفي استفهام إنكاري يدفع الله تعالى الخلق دفعاً ليقرروا حقيقة بدهية لكنها تغيب دائماً عن الغائبين عن عقولهم من أهل السلطة والذهب، وهي أن الجهال لا يمكن أن يتساووا أبداً مع العلماء، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾[2].

٢ ـ الفتوح:

بعث الله رسوله محمداً ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلي الصراط المستقيم، ولم تكن الدعوة إلى الإسلام مقصورة على العرب وحدهم، بل كانت دعوة عامة للبشرية جمعاء، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[3]. وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ

---

(١) سورة آل عمران: ١٨.

(٢) سورة الزمر: ٩.

(٣) سورة الأنبياء: ١٠٧.

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1].

وما دامت الدعوة الإسلامية للعالمين جميعاً، فقد أمر الله تعالى بالجهاد في سبيله وقتال الكفار والمشركين والمنافقين، ومحق الكفر والشرك والنفاق، وإعلاء كلمة الله، ونشر دينه القويم، حتى يكون الدين كله لله قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ﴾[3]. وقال عز وجل: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4]. وقال تبارك: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ﴾[5]، وقال عز من قائل: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾[7]، وقال سبحانه:

---

(١) سورة سبأ: ٢٨.

(٢) سورة التوبة: ٧٣، وسورة التحريم: ٩.

(٣) سورة الأنفال: ٦٥.

(٤) سورة التوبة: ٤١.

(٥) سورة التوبة: ٥.

(٦) سورة التوبة: ١٢.

(٧) سورة التوبة: ٢٩.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾[(1)]، وقال تبارك: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾[(2)]، وقال عز من قائل: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾[(3)].

ووعد الله المؤمنين المجاهدين في سبيله بالنصر أو الجنة، قال تعالى: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾﴾[(4)] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[(5)]، وقال تبارك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ

---

(١) سورة النساء: ٧٦.

(٢) سورة التوبة: ١٤.

(٣) سورة الأنفال: ٣٩.

(٤) سورة النساء: ٧٤.

(٥) سورة الصف: ١٠ ـ ١٣.

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾[1].

وهكذا بثَّ القرآن في نفوس العرب روحاً جديدة من الإيمان وحب الله ورسوله والتفاني في سبيل نصرة دين الله، فانطلقوا إلى الفتوح ليبيدوا الكفار ويستأصلوا شأفة الكفر، وينشروا نور الإسلام في ربوع الأرض، امتثالًا وطاعةً لأمر الله سبحانه وتعالى.

هذا هو سبب الفتوح وهدفه، ولعل ما يمثل ذلك أصدق تمثيل ما انطلق على لسان ربعي بن عامر الذي بعثه سعد بن أبي وقاص إلى رستم في القادسية، فدخل عليه في ثياب صفيقة فوق فرس قصيرة حتى داس بها على طرف بساط رستم ثم ترجل فربطها ببعض الوسائد، وأقبل على رستم وعليه سلاحه، ودرعه، وبيضته فوق رأسه، ثم توكأ على رمحه فوق الوسائد ودوى صوته مجيباً من سأله: ما جاء بكم؟ فقال: «الله.. ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور

---

(١) سورة التوبة: ١١١.

الأديان إلى عدل الإسلام»[1].

وخلال عهد الصحابة انتشر نور الإسلام وعم أرجاء الدنيا وغطى مساحة كبيرة من العالم تمتد من بلاد فارس وما وراءها إلى شمال أفريقية، وتشمل العراق والشام ومصر وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط.

وكانت للفتوح الإسلامية آثار بعيدة المدى، إذ دخل أغلب أهل هذه البلاد المفتوحة في دين الله أفواجاً، وكان السبب في دخولهم الإسلام هو أنهم وجدوا الفاتحين العرب يدينون بدين جديد لا يعرفونه، وأن هذا الدين حول العرب من النقيض إلى النقيض، حولهم من قبائل متفرقة إلى أمة واحدة على قلب رجل واحد، ومن التناحر إلى الائتلاف، ومن الضعف إلى القوة، ومن العبودية إلى السيادة والعزة، لقد كانوا يعرفون أن العرب قبل هذا الدين كانوا يتصارعون فيما بينهم صراعاً دموياً رهيباً وعلى أتفه الأسباب كما نعرف من أخبار حرب البسوس وحرب داحس والغبراء، كما كانوا ضعافاً ولم يكونوا يجرؤون على مجرد الاقتراب من حدود الإمبراطوريتين العظيمتين الفارسية والرومانية، ولم يهجس في نفوسهم هاجس بالاستطالة أو المساواة، بل كان

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ٣٤/٣.

قصارى من سمت به همته منهم أن يكون عاملاً لكسرى أو لقيصر ـ كما كان الحال مع المناذرة والغساسنة ـ وأن يظل خاضعاً لسيطرته منفذاً لرغباته حتى ولو كانت ضد القبائل العربية الأخرى، ولكن هذا الدين الجديد أبدلهم عن إحساسهم بالضعف والخوف أمام الفرس والروم إحساساً آخر بالقوة والندية بل والتفوق، إحساساً مملوءاً بالثقة والاعتزاز والكرامة، وإذا بهم وهم الحفاة العراة الجياع العطاش، رعاة الإبل وأكلة الحنظل يطبقون ـ كالسيل الجارف الجرار ـ على من كانوا بالأمس سادتهم وأصحاب الثروة والقصور والقوة والجيوش، فيدكون حصونهم، ويزلزلون عروشهم، ويذيقونهم مُرَّ الهزيمة المنكرة ويجبرونهم على دفع الجزية يأخذونها منهم عن يد وهم صاغرون، وإذا بالمسلمين ـ خلال عشية أو ضحاها، يهدمون أعتى امبراطوريتين عرفهما التاريخ في زمن قياسي لا يتجاوز عشر سنوات تقريباً، ويقيمون على أنقاضهما دولة واحدة كبيرة قوية تمتد من حدود الصين شرقاً إلى تونس غرباً ومن بحر قزوين شمالاً حتى السودان جنوباً، وإذا بالمسلمين أصبحوا هم السادة، تلقى في حجورهم كنوز كسرى وقيصر، وتقبل عليهم الدنيا بأسرها، ويمسي الفرس والروم خداماً في قصورهم، يعيشون على فضل إحساناتهم.

وبدأ أهل البلاد المفتوحة يفكرون في أمر هذا الدين الجديد العجيب الذي فعل بأصحابه هذا كله، وبفضله أصبحوا على ما هم عليه من قوة وعظمة، ولم يكن أمامهم إلا أن يتوجهوا إلى هذا الدين فدخلوا فيه أفواجاً، وأقبلوا على القرآن الكريم كتاب الفاتحين يتعلمونه ويدرسونه، وكان على الصحابة رضوان الله عليهم أن يقوموا بواجبهم نحو تعليم القرآن والإسلام.

لم يكن أهل البلاد المفتوحة يتكلمون العربية، وإنما كانوا يتكلمون بلغات أخرى مختلفة، ففي مصر كانت القبطية لغة الطبقات الشعبية، وكانت مع اليونانية لغتي التعامل الإداري المحلي، وكانت هناك بقايا هيروغليفية وديموطيقية، وكانت اللهجات الآرامية المختلفة (السريانية والنبطية) تسود أكثر مناطق الشام وبعض مناطق العراق، وكانت البهلوية لغة للدواوين في العراق، وكانت اللهجات الإيرانية الوسيطة المختلفة سائدة في شرقي الدولة الإسلامية وغير ذلك.

وكان على أهل البلاد المفتوحة أن يسعوا لتعلم العربية وإجادتها لأنها الطريق إلى فهم القرآن، ذلك الكتاب الإلهي الذي بهرتهم نتائجه من حيث تحويل العرب من النقيض إلى النقيض، كما بهرتهم تطبيقاته التي

تبدت في سلوك القادة الفاتحين وأخلاقياتهم السامية الرفيعة، ومن جهة أخرى كان تعلم العربية له قيمة من حيث كونها لغة الفاتحين والسادة الجدد، واعتبار التحدث بها سمة الانتماء إلى الحكام والطبقة العليا في المجتمع، كما كان التحدث بغير العربية سمة الانتماء إلى الطبقات الدنيا والوسطى، وكانت العربية طريقاً للتعيين في وظائف الدولة، كما أنها لغة الإبداع الفني المعترف به من قبل الحكام.

والقرآن الكريم يمثل قمة اللغة العربية، ولما كان أهل البلاد المفتوحة لا يعرفونها، لذا واجهتهم صعوبة مضاعفة في معرفة معاني ألفاظه وتراكيبه وصوره ودلالاته، ومن هنا كان على الصحابة ـ وهم حملة الدين والقائمون عليه ـ أن ينهضوا بعبء تفسير القرآن وكشف ما يغمض من ألفاظه ومعانيه، ليتمكن أهل البلاد المفتوحة من فهمه وتدبره والعمل بأحكامه وتشريعاته.

ولقد كثرت المسائل الفقهية وتنوعت تبعاً لكثرة المشكلات التي نتجت عما أسفرت عنه الفتوح من المواجهة الحتمية بين أحوال أهل البلاد المفتوحة الاقتصادية والاجتماعية وبين النظم والتشريعات الإسلامية الجديدة، وكان على الصحابة أن يواجهوا هذه الأعباء الجديدة، وأن يجتهدوا في حلّ هذه المشكلات وهم

المسؤولون عن ذلك بعد أن تسلموا لواء الدين بعد النبي ﷺ.

وكذلك لم يكن أهل البلاد المفتوحة ملة واحدة أو على عقيدة دينية مشتركة، وإنما كانوا مللًا مختلفة ونحلًا متناقضة، كان منهم اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وعبدة الأوثان.. وكان لكل ملة منهم طوائفها الداخلية فيما بينها، واتجاهاتها الفكرية، وتراثها الفلسفي، ومفاهيمها الميتافيزيقية، وعقائدها الدينية، ومبادئها المذهبية، التي تختلف اختلافاً شديداً عما جاء به القرآن الكريم من معطيات عقائدية، وفهوم ميتافيزيقية، وأنظار عقلية، وكان لا بد من الصراع بينهم وبين أمة القرآن وحملته.

وحين ظهر الإسلام ونشرت فتوحاته نوره في الآفاق كان اليهود قد بدلوا دينهم وحرفوا كتبهم وكتبوها بأيديهم لخدمة مصالحهم الخاصة، وادعوا كذباً أنها من عند الله إفكاً وزوراً، وعلى الرغم من أنهم كانوا يعرفون النبي ﷺ قبل مبعثه من علامات ذكرت له وبشارات في كتبهم الأصلية، وكانت معرفتهم له واضحة كمعرفتهم أبنائهم، وكانوا يستفتحون على مشركي العرب بمجيء نبي جديد ـ إلا أنهم أنكروا محمداً ﷺ عندما بعث، وكذبوه ولم يؤمنوا به حسداً وكبراً وعناداً، لما وجدوه

عربياً وليس إسرائيلياً، ولما وجدوا ما جاء به من وحي نزله الله عليه قد فضح أكاذيبهم، ودحض مفترياتهم، وكشف عبثهم بدين الله، وادعاءهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم شعبه المختار، وما سواهم من البشر «جوييم» وتعني هذه الكلمة عندهم «البهائم»[١]، أو «القرود الحليقة المحتقرة» أو «الحبيبات البشرية» أو «العدو العالمي المكروه» أو «الإرث الذي وعدهم به يهوه»[٢]. لذا عاشوا كشراذم عنصرية متمردة متآمرة، غير قابلة للاندماج أو التعايش مع غيرها بسلام، ولكن لها سلوكها المبني على مبدأ واحد هو استغلال الشعوب الأخرى بأية وسيلة كانت ولو بالتدمير والتخريب والإبادة، وعاشوا منعزلين في حارات أو غيتو، وقالوا بالدين المغلق وأن الدين والشريعة والنبوة لهم فقط، وأن ما عداهم من الناس لا إله لهم ولا دين، وليسوا بآدميين على الحقيقة.

وكفروا بالله فقالوا بالتشبيه والتجسيم، ونسبوا له الولد ـ سبحانه ـ فقالوا عزير ابن الله، واختلقوا لهم إلهاً من دونه ـ سبحانه ـ أحاطوه بالغموض والألغاز حتى إن

(١) د. أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي ٢٠/٥.
(٢) سهيل ذيب، التوراة، تاريخها وغاياتها ص٢٤.

طريقة لفظ اسمه مجهولة، وأسموه «يهوه» (YHWH)، وهو نتاج مراحل التطور البطيء والطبيعي لفكرة الألوهية عندهم بدءاً من مرحلة تعدد الآلهة شأنهم في ذلك شأن القبائل البدائية الأخرى، وأعطوه الكثير من خصائص هذه الآلهة القبلية، والصفة المشتركة لأكثر آلهة القبائل القديمة هي الحجر والنار، فجعلوا من هاتين الصفتين جبلًا بركانياً ضخماً رمزاً لقوة يهوه الجبارة الهائلة، لكي يجعلوه إلهاً غاضباً حاقداً، ظالماً قاسياً رهيباً، يتلذذ باستنشاق دخان الحرائق، ورائحة الدماء المسفوكة، ويعشق رؤية الذبائح، ويأمر بقتل النساء والأطفال والرجال والحيوانات، وقالوا: «الرب يأتي من بعيد، غضبه مشتعل، والحريق عظيم، شفتاه ممتلئتان سخطاً، ولسانه كنار آكلة، ونفخته كنهر غامر يبلغ إلى الرقبة، لغربلة الأمم بغربال السوء، وعلى فكوك الشعوب رسن مضل»[1].

وهكذا وحد اليهود بين يهوه والشيطان، ولعل المقارنة بين هذين النصين يوضحان ذلك، يقول النص الأول: «وعاد فحمي غضب الرب على إسرائيل، فأهاج عليهم داود قائلًا امض وأحص إسرائيل»[2]، ويقول النص

(١) العهد القديم، سفر إشعيا ٣٠/٢٧ ـ ٢٨.

(٢) العهد القديم، صموئيل الثاني ٢٤/١ ـ ٢.

الآخر: «ووقف الشيطان ضد إسرائيل وأغوى داود ليحصي إسرائيل»[1]. وهكذا كان يهوه هو الشيطان.

وأما عن النبيين فقد كذبهم اليهود، واضطهدوهم وأهانوهم وساموهم سوء العذاب، وقتلوا كثيراً منهم بغير الحق.

هذا عن اليهود وأما عن النصارى فقد كانوا حين ظهور الإسلام قد بدلوا دينهم وحرفوا عقيدتهم، وانقسموا على أنفسهم بين ملكانية تقول إن الله ثالث ثلاثة، ونساطرة تقول إن المسيح إله وإنسان اتحدا، ويعاقبة تقول إن الله هو المسيح، وقد دار بينهم صراع رهيب حول طبيعة المسيح بين الناسوت واللاهوت، ومعنى الشركة المقدسة، والعلاقة بين الأقانيم الثلاثة، وكفروا بالله وضلوا وأضلوا، فقالو إن المسيح صلب وقتل وقام من بين الأموات تكفيراً عن خطيئة آدم، وفداءً للنصارى وتخليصاً لهم.. الخ.

وأما المجوس فكانوا يعبدون النار، وانقسموا إلى فرق متناحرة، كيومرثية، وزروانية، وزردشتية، ومسخية، ومانوية، وديصانية، ومزدكية، ومرقيونية، وكينوية، وصيامية، وتناسخية.. وكانوا يقولون بالإثنينية النور

---

(١) العهد القديم، أخبار الأيام الأول ١/٢١ ـ ٢.

والظلمة (إيزدن وأهرمن)، وكان منهم من يعبد النار، ومنهم من يعبد الشمس، ومنهم من يقول بالتناسخ والحلول، ومنهم من أباح النساء والأموال.

وكانت الصابئة منهم أصحاب الهياكل الذين يعبدون الكواكب، ومنهم أصحاب الأشخاص الذين يعبدون الأصنام والأوثان على مثال الهياكل السبعة، ومنهم الحرنانية الدهرية الذين قالوا إن الله واحد وكثير، وأنكروا البعث والآخرة، ومنهم من كان يعبد الملائكة، ومنهم من كان يؤمن بستة وثلاثين ليسوا بآلهة ولا بشر ولا ملائكة يعلمون كل شيء ويعرفون الغيب ولكل منهم مملكة في عالم الأنوار.

كل هذه الملل والنحل الزائغة عبارة عن وثنية وشرك وزندقة، وقد أثرت تأثيراً فاحشاً في حركات الباطنية من قرامطة وحشاشين وغالية الشيعة وغيرهم، كما بدأ اليهود يدسون إسرائيلياتهم في التفسير والحديث والتاريخ والوعظ وغير ذلك، وبدأت أفكارهم العقدية الهدامة تظهر في مذاهب الشيعة الغالية والكيسانية والإسماعيلية والحشوية والمجسمة.. مثل فكرة الإمام المعصوم، وخاتم الأوصياء، والبداء، والرجعة، والتشبيه، والتجسيم، والتأليه.. وتسللت أيضاً أفكار الغنوصية من تناسخ

وحلول، والمهدي، والإباحية، وغير ذلك.

وكان لا بد أن يحدث الصدام بين القرآن وهذه الملل والنحل الباطلة، وكان ذلك من أهم نتائج الفتوح الإسلامية التي دفعت إلى قيام نشاط عقلي، وأثر ذلك في حركة التفسير تأثيراً شديداً.

٣ ـ مشكلة الإمامة:

لم ترد في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة نصوص صريحة تفرض على الأمة الأخذ بنظام معين للحكم، وإنما وردت فيهما مبادىء عامة وأصول أساسية، وتركت التفاصيل للأمة تكيفها حسب ظروفها المختلفة المتغيرة، ومن هذه المبادىء العامة: قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾(١). وقال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾(٢) ومنها العدل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾(٣). ومنها الحكم بشريعة الله وعدم اتباع الأهواء الشخصية، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾(٤). ومنها طاعة

---

(١) سورة الشورى: ٣٨.
(٢) سورة آل عمران: ١٥٩.
(٣) سورة النساء: ٥٨.
(٤) سورة المائدة: ٤٩.

الحاكم، قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]. ومنها الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في المنازعات، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[2]. وغير ذلك.

لذا تعددت الاجتهادات الإسلامية في أسلوب اختيار الحاكم، فالنبي ﷺ لم يعين أحداً يخلفه من بعده تعييناً بالنص، وإنما لفت أنظار المسلمين إلى فضل أبي بكر الصديق، وكان يقدمه لإمامة المسلمين في الصلاة نيابة عنه أثناء غيابه وفي مرضه الأخير، وكان ذلك إشارة منه ﷺ بأنه يحب أن يكون أبو بكر هو الخليفة من بعده. وانتهج أبو بكر نهجاً آخر إذ عين عمر بن الخطاب خليفة من بعده، وأشهد الصحابة على ذلك. وانتهج عمر نهجاً مختلفاً إذ أنشأ مجلساً للشورى مكوناً من ستة من كبار الصحابة، وأمرهم أن يجتمعوا إذا مات ويختاروا واحداً منهم خليفة، وقد انتهت مشاوراتهم بمبايعة عثمان بن عفان.

ولكن وقعت الفتنة التي مزقت وحدة المسلمين وفرقتهم أحزاباً متناحرة، ووقف المسلمون وجهاً لوجه ـ لأول مرة ـ وقفة الخصوم الأعداء وبأيديهم السلاح،

---

(١)(٢) سورة النساء: ٥٩.

واندلعت الحروب وسفكت الدماء. فثار على عثمان الساخطون على سياسته وعلى عماله من عوام أهل الأمصار، وقتلوه. وتولى علي بن أبي طالب الخلافة في جو عاصف ملبد بالاضطرابات والنزاع. فلم يستقر له الأمر، وكانت موقعة الجمل، ثم موقعة صفين، ثم انشق عليه بعض أتباعه وسموا بالخوارج فقاتلهم في عدة معارك أشهرها موقعة النهروان، فحقدوا عليه وتمكن أحدهم من قتله سنة ٤٠هـ، وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية الذي استأثر بها وحصرها في البيت الأموي، وحولها إلى ملكية وراثية عصبية حتى سقطت الدولة الأموية سنة**١٣٢**هـ على يد العباسيين.

لقد كانت مشكلة الإمامة أو (الخلافة) هي أول وأخطر مشكلة واجهت المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة.

وقد أدى الاختلاف حولها إلى نشوء عدة فرق سياسية مثل الشيعة والخوارج وغيرها، واحتدم الصراع بين هذه الفرق، وكان صراعاً سياسياً وحربياً ولكنه سرعان ما تطور إلى صراع عقائدي، فأخذت كل فرقة تبحث عن نصوص من القرآن تفسرها حسب مصلحتها أو نصوص من السنة النبوية تدعم دعواها وتؤيد اعتقادها، وتدحض بها مذهب من يخالفها، ثم تعقد الأمر حين

راحت الغالية من كل فرقة تضع الأحاديث المكذوبة، وتأخذ من معتقدات الملل والنحل الزائغة والفلسفات البائدة، وتدخل في الصراع اليهود وغيرهم من الحاقدين على الإسلام فنفثوا سمومهم في أفكار هذه الفرق، وبدأت الفرق المذهبية في الظهور كالشيعة الغالية والجبرية والقدرية والمشبهة والمجسمة.. وكان لذلك كله أثره القوي في التفسير والتفكير العقلي.

٤ ـ الجيل المسلم الجديد:

بدأ الجيل المسلم الجديد يكبر ويشتد ويعي دوره في الحياة، وكان على الصحابة أن يعلموا هذا الجيل القرآن وأصول الإسلام وأحكام الدين، وقد برز من هذا الجيل سادات التابعين الذين أقبلوا على تعلم الدين والتفقه فيه، ووجهوا هممهم إلى التحصيل والدرس، وهيأوا أنفسهم لتلقي أمانة العلم الإسلامي والدعوة والتبليغ، وكان على الصحابة أن يعطوا هذا الجيل الجديد كل علمهم حتى يمكن لهم أن يحملوا تراث الإسلام، وينقلوه إلى الجيل التالي بعدهم، وهكذا تنتقل العلوم الإسلامية من جيل إلى جيل، ويظل لواء الإسلام عالياً سامياً خفاقاً إلى يوم الدين.

وراح أبناء الجيل الجديد يسألون الصحابة عن

أحكام الدين، ويستفتونهم فيما يصادفهم من أقضية ومشكلات، ويتتلمذون على أيديهم، وقد قام الصحابة بدورهم خير قيام، وكانوا نعم المعلمين والمربين.

وكان للتفسير نصيب كبير في هذا الجهد العلمي المتواصل، فهذا مجاهد بن جبر المكي يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن كله، يوقفه عند كل آية منه، وكان يحضر معه ألواحه، ويكتب عنه التفسير، وفي ذلك يقول مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها»[1]، وقال ابن أبي ملكية: «رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب. قال: حتى سأله عن التفسير كله»[2].

وهذا هشام بن عروة بن الزبير يسأل خالته السيدة عائشة رضي الله عنها عن تفسير آيات من كتاب الله تعالى، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ

---

(١)(٢) الطبري، جامع البيان ٤٠/١، وانظر أيضاً: ابن حجر: تهذيب التهذيب ٤٣/١٠.

(٣) سورة البقرة: ١٥٨. وانظر هذا السؤال وإجابة السيدة عائشة عنه في الطبري، جامع البيان ٤٧/٢ ـ ٥١.

خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ ﴾(1)، وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾﴾(2)، وعن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾(3).

وهذا عبيد بن عمير يسأل السيدة عائشة عن

---

(1) سورة النساء: ٣. وانظر هذا السؤال وإجابة السيدة عائشة عنه في الطبري، جامع البيان ٢٣١/٤ ـ ٢٣٢، ٣٠١/٥ ـ ٣٠٣.

(2) سورة النساء: ١٢٧ .وتفسير هذه الآية مرتبط بتفسير الآية رقم ٣ من نفس السورة. انظر: الطبري، جامع البيان ٢٣١/٤ ـ ٢٣٢، ٣٠١/٥ ـ ٣٠٣.

(3) سورة يوسف: ١١٠ .وانظر هذا السؤال وإجابة السيدة عائشة عنه في البخاري: صحيحه، كتاب التفسير، سورة يوسف، باب قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ ٩٧/٦ ـ ٩٨، وسورة البقرة. باب قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ ٣٥/٦ .وكتاب بدء الخلق، باب قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ ١٨٣/٤ ـ ١٨٤.

تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[1]، ويسألها مسروق عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾[3]، وقوله تبارك: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾[4]، ويسألها أبو عبيدة عن تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾[5]. وهكذا كانت أمانة نقل العلم إلى هذا الجيل الجديد المتطلع إلى المعرفة، وكانت الأسئلة والمناقشات الدائرة بينه وبين أساتذته من الصحابة من أهم عوامل تشجيع النشاط التفسيري في ذلك العصر.

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٥ .وسورة المائدة: ٨٩ .وانظر هذا السؤال وإجابة السيدة عائشة عنه في الطبري، جامع البيان ٤٠٥/٢، ٤٠٦ .وعبدالرزاق، المصنف ٤٧٣/٨ ـ ١٥٩٥١/٤٧٤.

(٢) سورة التكوير: ٢٣.

(٣) سورة النجم: ١٣.

(٤) سورة النجم: ٨، ٩ .وانظر في سؤال مسروق عن هذه الآيات الثلاث وإجابة السيدة عائشة عنه في الطبري، جامع البيان ٤٦/٢٧، ٥٠، ٥١.

(٥) سورة الكوثر: ١ .وانظر هذا السؤال وإجابة السيدة عائشة عنه في البخاري. صحيحه، كتاب التفسير، (سورة الكوثر) ٢١٩/٦.

الموقف

نهض الصحابة رضوان الله عليهم للقيام بواجبهم في مواجهة تحديات عصرهم ومشكلاته وقضاياه، وكان نشاطهم التفسيري خصباً ومبدعاً، وتركوا فيه آثاراً وفيرة كانت من أهم الأصول التي اعتمد عليها المفسرون من بعدهم اعتماداً أساسياً في إقامة مناهجهم واستلهام نظراتهم، واستمداد أفكارهم وإنارة الطريق أمام أعمالهم التفسيرية.

ولسنا مع ما يراه بعض الباحثين في التفسير وعلوم القرآن من أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يؤثر عنهم في التفسير إلا النزر اليسير لأنهم تهيبوا القول في التفسير واتقوه.

والواقع أن هذه الفكرة ليست على إطلاقها، بل تحتاج إلى نوع تحديد، وذلك لأسباب منها:

ـ أن العمل التفسيري لأغلب الصحابة المفسرين لم

يأخذ الشكل المسلسل الذي أقيمت في إطاره التفاسير المعروفة الشائعة ـ حيث يعمل المفسر في تفسير القرآن الكريم كله أو أغلبه كلمة كلمة وآية آية وسورة سورة ـ وإنما قام أغلب الصحابة المفسرين بتفسير ما ظهر وجه الحاجة إلى تفسيره، وما يسئلون عنه من معاني الآيات أو ألفاظها وتعبيراتها، أو الأحكام الوادرة فيها، وذلك من أقرب طريق دون إسهاب، وبعيداً عن الديباجات الفلسفية، أو الإغراق في التحشيات النظرية.

ـ أن تفسير الصحابة منه ما يتصل بتبيين معنى النص القرآني اتصالاً مباشراً، ومنه ما يتصل بمواقف وظروف الحياة المختلفة، وكان نتاجاً لفكرهم القائم على فهم النص القرآني، الأمر الذي يحتم ضرورة استشفاف الرؤية التفسيرية لهم من خلال آرائهم وفتاواهم وأقوالهم المأثورة التي صدرت عن هذه المواقف والظروف، خاصة وأن جهود الصحابة في ذلك كانت ترجمة عملية لنشاطهم الفكري، حتى إنها «يمكن أن تسمى مرحلة التفسير العملي»[١].

ـ أن هذه الفكرة لا تنظر إلى مفهوم التفسير على

---

(١) د. عفت محمد الشرقاوي. اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث ص١٤.

أنه كل نشاط فكري مبدع وخلاق يخدم النص القرآني، بصرف النظر عن اتخاذه الشكل الذي صيغت في قالبه مواد التفاسير المعروفة. وعلى هذا فإنه لو تم جمع كل ما أثر عن الصحابة المفسرين من جهود تتصل بالنص القرآني وتخدمه من أي زاوية من زواياه، لتوفرت مادة تفسيرية ضخمة تكون في مجموعها مجلدات في صلب التفسير.

- أن الآثار التفسيرية التي خلفها الصحابة المفسرون وجهودهم الفكرية الأخرى المتصلة بالنص المقدس والخادمة له، ظلت عصوراً طويلة متناثرة في بطون كتب التراث، كما ظلت مروية في مؤلفات مختلفة غير كتب التفسير، مثل مؤلفات الحديث والفقه وغير ذلك، ولم يتم بعد التنقيب عنها كلها وجمعها وتصنيفها لكل صحابي مفسر على حدة، يكون خاصاً به، ترتب فيه آثاره وجهوده التفسيرية ترتيباً مصحفياً حسب آيات وسور القرآن الكريم ولو تم إنجاز هذا العمل لاتضحت معالم تفسير الصحابة بصورة أكثر دقة وإشراقاً.

حقيقة التهيب:

أما عن تهيب الصحابة من التفسير وإكبارهم القول فيه فقد كان في الحقيقة إجلالاً لكلام الله تعالى وتعظيماً

له، وإشفاقاً من الوقوع في الخطأ، وتورعاً من أن يقولوا في النص بما لا يحتمله، وخشية أن يفسروه على غير وجهه الذي قصده الله تعالى، وكان ذلك منهم نوعاً من الحذر الشديد في تناول النص والقول فيه، حتى يغلقوا باب التشكيك والخوض الذي يؤدي إلى الفتن والاضطرابات. وكان مبعث ذلك عندهم هو حبهم الشديد لكتاب الله وتقديسهم له، ورغبتهم القوية في صونه وحمايته، ودرء الخطر عنه، وإبعاده عن مزالق التفسير التي قد تشوب معانيه الأصلية وأفكاره الحقيقية.

ولقد فطن الصحابة رضوان الله عليهم إلى أن القرآن حمال ذو وجوه، أي يمكن حمله على معان متعددة، فكانوا يخشون ألا يصيبوا الوجه الصحيح منه، وفي ذلك يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: «إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً». قال حماد: فقلت لأيوب: «أرأيت قوله! حتى ترى للقرآن وجوهاً، أهو أن يرى له وجوهاً فيهاب الإقدام عليه، قال: نعم، هو هذا»[١].

وإلى جانب ذلك، كان التهيب من التفسير يرجع إلى تلك الأحاديث النبوية الشريفة التي تحرم تحريماً قاطعاً تفسير القرآن بمجرد الرأي أو بغير علم، وهي

---

(١) السيوطي، الإتقان ١٤٥/٢.

أحاديث شاعت وأحدثت دوياً هائلًا ما زال يتردد صداه حتى اليوم، وأحاط علم التفسير بسياج عال من التهيب والحذر والخشية.

ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[1]. وعلى الرغم من أن هذا الحديث يحتم أن يكون التفسير قائماً على العلم، لأن نتيجة التفسير بغير علم ستكون ضرباً من الكفر والإفساد - إلا أنه يدعو أيضاً إلى التردد، والتفكر جيداً حول ماهية هذا العلم الذي يستخدم في التفسير، ومدى الثقة فيه، وقيمة النتائج التي يمكن الوصول إليها عن طريقه.

ومن هذه الأحاديث النبوية أيضاً، قوله ﷺ: «**من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**»[2]. ولا ريب أن فحوى هذا الحديث صحيحة، وإن شك بعض العلماء في أحد رواته، ولكن المهم في هذا الحديث أنه يقطع أي سبيل أمام من يجرؤ على التعرض لكتاب الله برأيه حتى ولو أصاب، وذلك لأن الرأي هنا قد يكون معناه الهوى

---

(١) الترمذي. سننه، أبواب التفسير، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ٤/٣٦٨ حديث رقم ٤٠٢٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الترمذي. سننه، أبواب التفسير، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ٤/٣٦٨ - ٣٦٩ حديث رقم ٤٠٢٤.

الشخصي أو المعتقد الخاص وقد يكون نابعاً من الجهل أو التوهم أو التعالم، وقد يكون قائماً على الحدس أو التخمين أو التخرص، وقد يكون نتيجة اتباع غير المنهج القويم في التفسير المصطلح عليه، وكل ذلك إنما يميل بفهم النص إلى الوجه الذي يتراءى خطأ، مما تترتب عليه عواقب وخيمة.

ولعل هذا ما يلقي الضوء على قول أبي بكر الصديق حين سئل عن تفسير آية: «أي سماء تظلني؟ وأي أرض تقلني؟ وأين أذهب؟ وكيف أصنع؟ إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى»[١].

والصحابة رضوان الله عليهم قاموا بنشاط فكري رائع في خدمة كتاب الله مما يتعلق بالتفسير، فقد تصدوا لتفسير القصاص الشعبيين، وقاوموا مثيري المتشابه، ووقفوا من الإسرائيليات موقفاً حازماً، وابتعدوا عن الخوض في التفسير السياسي والمذهبي.

الصحابة وتفسير القصّاص:

لقد تصدى الصحابة المفسرون للقصاص الشعبيين الذين كانوا يجلسون في الطرقات والأسواق والمساجد

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٤.

يقصون على الناس القصص والحكايات القديمة التي كان يدور محورها ـ غالباً ـ حول السحر والكهانة والجن والأصنام والحروب والهوى والعشاق. . وترجع بعض عناصر هذه القصص إلى مصادر هندية وفارسية ورومانية وسريانية وقبطية وإسرائيلية. . وغير ذلك. وكان أولئك القصاص يتعرضون بالتفسير لما يرونه متعلقاً بها من قصص القرآن، فيجيء تفسيرهم مختلطاً بعناصر الحكايات الشعبية من الخرافات والأساطير والأوهام والأحاديث الموضوعة، وكل ما هو عجيب ومثير، الأمر الذي يؤدي إلى تشويه المعاني القرآنية وإثارة التخليط فيها. وكان علي بن أبي طالب يمنعهم من الجلوس إلى الناس[١]، كذلك كان عبدالله بن عمر يستعين على إخراجهم من المسجد بصاحب الشرطة[٢].

ولعل من الأمثلة التي تبين أسلوب الصحابة في مواجهة أولئك القصاص، وإرشاد المسلمين إلى ما في تفسير القصاص من خطأ، والمعنى الصحيح للآية، ما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رجلًا جاءه وأخبره أنه ترك بالمسجد أحد القصاص يقص على الناس

(١) الغزالي. إحياء علوم الدين ٩٨/١.
(٢) د. محمد محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون ص١٠٠.

أحداث البعث والقيامة، ويفسر برأيه قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[1]، ويحكي لهم كيف يظهر دخان كثيف يوم القيامة يأخذ بأنفاس الناس حتى يصيبهم منه كهيئة الزكام. ويغضب ابن مسعود لذلك، وينبه الناس إلى قاعدة أصولية هامة بقوله: «من علم علماً فيلقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من فقه الرجل أن يقول لما لا يعلم الله أعلم». ويفسر للناس هذه الآية ويبين لهم معناها، فيذكر لهم أن حادثة الدخان ليست من حوادث يوم القيامة، وإنما هي قد حدثت بالفعل في عهد النبي ﷺ، وكان ذلك حين اشتد أذى قريش بالمسلمين، وزادت عداوتهم للإسلام، فدعا عليهم النبي ﷺ بسنين كسني يوسف عليه السلام، فأصابهم قحط شديد وجدب، وجهدوا حتى أكلوا الجلود والعظام والميتة، وجعلوا يرون ما بينهم وبين السماء كهيئة الدخان من شدة الجوع والنصب والإعياء، وأنزل الله تعالى قوله الكريم: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾[2]. فجاؤوا إلى النبي ﷺ واشتكوا له، وطلبوا منه أن يرحمهم ويدعو الله أن يفرج عنهم ما هم فيه من الجوع والبلاء، وأن يستسقي لهم

---

(١) سورة الدخان: ١٠.

(٢) سورة الدخان: ١٠، ١١.

فقد هلكوا، فاستجاب الرسول ﷺ ودعا لهم، فأنزل الله عز وجل قوله الكريم: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾[1]. ولكنهم لم يهتدوا، وعادوا إلى أذاهم وطغيانهم، فأنزل الله تعالى قوله الكريم: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾[2]. وانتقم منهم يوم بدر[3].

لقد بين ابن مسعود خطأ القاص، ونبه إلى ضرورة الالتزام بالعلم الصحيح، وعدم الخوض فيما لا علم به، وأنه لا حرج في الاعتراف بعدم العلم، وإنما الخطأ والإفساد في الجهل والتعالم.

كما بين ابن مسعود التفسير الحقيقي للآية، وذكر أن الدخان هو جوع أصاب كفار قريش نتيجة دعوة النبي ﷺ عليهم، حتى كان أحدهم يرى ما حوله وما بينه وبين السماء كأنه دخان من شدة الجوع.

الصحابة وتفسير المتشابه:

ابتعد الصحابة رضوان الله عليهم عن تفسير الآيات المتشابهة، وهي الآيات التي يتعارض ظاهر معناها مع

(١) سورة الدخان: ١٥.
(٢) سورة الدخان: ١٦.
(٣) د. محمد عيسوي، تفسير ابن مسعود ٣٩٦/٢ ـ ٣٩٩.

ظاهر معاني آيات أخر ـ وزجروا مثيريها وعاقبوهم. ولعل أشهر ما يذكر في ذلك الصدد قصة ذلك الرجل المدعو صبيغاً[1]، الذي قدم المدينة وجعل يسأل الناس عن متشابه القرآن فنما أمره إلى عمر، فأرسل إليه وقد أعد له عراجين النخل، فلما أتاه ضربه بها حتى أدمى رأسه، وفي رواية أنه ضربه على ظهره بها حتى جعله دبرة، ثم تركه حتى برأ، ثم أرسل له مرة ثانية، وفعل به مثلما فعل أول مرة، ثم تركه حتى برأ، ثم أرسل له مرة ثالثة فقال له الرجل: «إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلًا جميلًا» وأقر له بأنه رجع عما كان يجد برأسه من وساوس، فترك عمر ضربه، ولكن نفاه إلى البصرة، وأمر ألا يجالسه أحد من المسلمين[2]. وروي عن عمر أيضاً أنه سأله سائل عن آيتين متشابهتين فعلاه بالدرة. وسأله آخر عن خلق القرآن، فتعجب من قوله، وأخذ بيده حتى جاء إلى علي كرم الله وجهه فقال: يا أبا الحسن، استمع ما يقول هذا الرجل. قال: وما يقول يا أمير المؤمنين؟ فقال الرجل:

---

(١) هو في بعض المصادر عبد الله بن صبيغ، وفي تاج العروس (صبغ): اسمه ربيعة بن المنذر ويسمى أخوه صبيغاً.

(٢) السيوطي، الإتقان ٣/٨ ـ ٩، والدارمي، السنن، المقدمة، باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع ١/٦٦ ـ ٦٧ حديث رقم ١٤٤، ١٤٨.

سألته عن القرآن أمخلوق هو، أم لا؟ فوجم لها رضي الله عنه وطأطأ رأسه، ثم رفع رأسه، وقال: سيكون لكلام هذا نبأ في آخر الزمان، ولو وليت من أمره ما وليت لضربت عنقه»[1].

وقد روى أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي من فقهاء الشافعية(ت٤١٨هـ) في سننه عن طريق قرة بن خالد عن الحسن عن أمه عن أم سلمة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾: «الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به من الإيمان، والجحود به كفر»[2]. ويلاحظ أن هذه العبارة وما شابهها نسبت أيضاً إلى ربيعة بن عبدالرحمن وإلى الإمام مالك[3]. مما يدل على تواصل المبدأ من جيل الصحابة إلى أجيال التابعين من بعدهم.

كان الصحابة رضوان الله عليهم يلتزمون محكم القرآن ويحذرون من الخوض في المتشابه ويبعدون عن الجدل فيه والمراء لأن ذلك يفتح أبواب الشرور والفتن،

---

(١) الغزالي، إلجام العوام ص٣٨.

(٢) السيوطي، الإتقان ١٤/٣.

(٣) المصدر السابق ١٤/٣ ـ ١٥.

وهم في ذلك إنما يتبعون الله ورسوله، فقد حذر الله سبحانه وتعالى من القعود مع من يقتحم القرآن ويلغو فيه ويخوض، ووصف أولئك الخائضين بأنهم ظالمون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾[١].

وفي آية أخرى وصف الله تعالى القاعد مع الخائضين بأنه منافق، وقرن المنافقين بالكفار، وهددهم جميعاً بعذاب النار، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾[٢].

وذم سبحانه متبعي المتشابه ووصفهم بأن في قلوبهم مرضاً هو النفاق والميل عن الحق والرغبة في إشعال نار الفتن، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾[٣].

وقد جعل الله سبحانه وتعالى هذا الخوض من أسباب عذاب سقر فقال عز وجل: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾

---

(١) سورة الأنعام: ٦٨.

(٢) سورة النساء: ١٤٠.

(٣) سورة آل عمران: ٧.

﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ
﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾
وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾[1].

وحذر الرسول ﷺ من متبعي المتشابه، ففي حديث عائشة قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾﴾[2]. قالت: قال رسول الله ﷺ: **«فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»**[3].

وسمع الرسول ﷺ قوماً يتدارؤون القرآن، فقال لهم: **«إنما أنزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم فقولوا، وما جهلتم**

---

(١) سورة المدثر: ٣٩ ـ ٤٥.

(٢) سورة آل عمران: ٧.

(٣) البخاري، صحيحه، كتاب التفسير، (سورة آل عمران) ٦/٤٢، وأبو داود، السنن، كتاب السنة، باب النهي عن الجدال واتباع المتشابه من القرآن ٢/٥٥٠ ـ ٥٥١، وابن ماجة، السنن، المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل ١/١٨ ـ ١٩ حديث رقم ٤٧.

فكلوه إلى عالمه»[1].

وأخرج ابن مردويه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ قال: **«إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به»**[2].

وأخرج الطبراني في الكبير عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خصال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله وما يعلم تأويله إلا الله»**. الحديث[3].

إلى جانب ذلك كان أهم ما يشغل الصحابة ويستحوذ على اهتمامهم الفتوح ونشر الدعوة وتأمين الدولة والعمل على استقرار الأمور فيها، وقمع الردة، ورأب الصدع في صفوف المسلمين، وجمع القرآن خشية تعرضه للضياع أو التحريف... لذا لم يكن ثمة داع لفتح باب المتشابه في القرآن في تلك الفترة العصيبة حتى لا تتعرض

---

(١) أحمد، المسند ٢/١٨٥.

(٢) السيوطي، الإتقان ٣/ ٧.

(٣) المصدر السابق نفسه ٣/٧.

الأمة الإسلامية للتمزق والاضطربات التي لا شك أنها تنتج عن الخوض في المتشابه وتعصب كل خائض لرأيه.

والإسلام لم يحرم دراسة المتشابه والبحث عن حقيقته، بل يدعو إلى العلم به ويحث عليه، ما دام هذا العلم نافعاً مفيداً، يؤدي إلى الصلاح ويقوي الإيمان ويكشف اللبس، فلا حرج على من يقوم بدراسته والسؤال عن وجهه الصحيح من أجل الوصول إلى الحق والصواب. ولقد كان كثير من الصحابة يسألون النبي ﷺ عما يستشكل عليهم من الآيات وما يتشابه، وكان النبي ﷺ واسع الصدر، فكان يجيبهم ويوضح لهم ما التبس عليهم من ذلك، ولا يجد حرجاً من هذه الأسئلة. ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك ما روي عن السيدة عائشة من أنها سألت النبي ﷺ عن معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[1]، قالت: أين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**على الصراط**»[2]. وسألته عن معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[3]، قالت: فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟

---

(١) سورة إبراهيم: ٤٨.

(٢) الطبري. جامع البيان ١٢/٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٣) سورة الزمر: ٦٧.

قال: «**على جسر جهنم**»[(١)]. وسألته عن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾[(٢)]، وعن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾[(٣)]، وقالت: «أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ - تقصد رضي الله عنها أنها أول من سأله من المسلمين: هل رأى الله؟ ولقد أجابها النبي ﷺ عن ذلك، وقال: «**إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين**»[(٤)].

ولقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على نهج النبي ﷺ في مسألة المتشابه، فكانوا يقومون بتوضيح المتشابه وكشف اللبس عنه إذا ما وجدوا من السائل رغبة حقيقية في المعرفة والعلم، وحرصاً على قدسية النص وحرمة الدين، وتمسكاً بوحدة الأمة، واطمأنوا إلى بعد غرضه عن إثارة الفتن وإحداث الاضطراب وإضلال المسلمين، فكانوا في هذه الحالة يجيبون عن سؤاله ويعملون على نفي الوسواس عنه وتقوية إيمانه. ومن

---

(١) الترمذي. السنن، أبواب تفسير القرآن، (سورة الزمر) ٥/٥١، ٥٢، حديث رقم ٣٢٩٨ .أحمد. المسند ١١٦/٦.

(٢) سورة التكوير: ٢٣.

(٣) سورة النجم: ١٣.

(٤) الطبري، جامع البيان ٢٧/٥٠ ـ ٥١.

الأمثلة على ذلك أن عطية بن الأسود سأل ابن عباس عن بعض المتشابه، فقال: «أوقع في قلبي الشك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾[2]، وهذا (القرآن) نزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي المحرم وصفر وشهر ربيع؟ فقال ابن عباس: «إنه أنزل في رمضان ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلًا في الشهور والأيام»[3].

ومن ذلك أيضاً أن رجلًا سأل ابن عباس عن تفسير عدة آيات من المتشابه، وقال له: «إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي»، وبدأ الرجل يذكر هذه الآيات، فذكر منها قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[4] وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧﴾[5]، فما معنى قوله سبحانه في آية إنهم لا يتساءلون، وقوله في آية أخرى إنهم يتساءلون؟ وذكر الرجل أيضاً لابن عباس أن الله سبحانه يقول في

---

(١) سورة البقرة: ١٥٨.

(٢) سورة القدر: ١.

(٣) السيوطي، الإتقان ١/١٤٧ ـ ١٤٨.

(٤) سورة المؤمنون: ١٠١.

(٥) سورة الصافات: ٢٧.

آيـة: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾[1]، ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾[2]، فكيف وقد كتموا؟ وذكر الرجل أيضاً لابن عباس أن الله تعالى يقول: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾[3]، ويقول سبحانه في آية أخرى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾[4]، فقد ذكر تعالى في هذه الآيات أنه خلق الأرض قبل السماوات، بينما ذكر في الآيات التي قبلها أنه خلق السماوات قبل الأرض.

---

(١) سورة النساء: ٤٢.

(٢) سورة الأنعام: ٢٣.

(٣) سورة النازعات: ٢٧ ـ ٣٠.

(٤) سورة فصلت: ٩ ـ ١٢.

وأخيراً يسأل الرجل ابن عباس عن معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1]، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2]، ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[3]، فكأنه كان ثم مضى.

وقد بين ابن عباس لهذا الرجل ما استشكل عليه من هذه الآيات، وفسرها له على الوجه الصحيح، ولم يؤثمه في السؤال، ولم يوبخه، بل أجاب عن أسئلته دون انفعال، وكشف له اللبس، فقال له: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ في النفخة الأولى، ثم ينفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتسألون، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتسألون. وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ﴾، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، وقال المشركون: تعالوا نقول لم نكن مشركين، فختم على أفواههم، فتنطق أيديهم، فعند ذلك عرف أن الله لا يكتم حديثاً، وعنده ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية. وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٠.

(٢) سورة الفتح: ١٩.

(٣) سورة النساء: ١٣٤.

الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السماء في يومين. وكان الله غفوراً، سمى نفسه ذلك، وذلك قوله أي لم يزل كذلك، فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد. فلا يختلف عليك القرآن، فإن كلّا من عند الله(١).

وحين جاءه نافع بن الأزرق زعيم فرقة الأزارقة من الخوارج وسأله عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾(٢)، وهي من الآيات المتشابهة المتعلقة بمسألة الذات والصفات، أجابه ابن عباس وفسر له الساق بالشدة والكرب والأمر العظيم، كما يقال: قامت الحرب على ساق، واستشهد على هذا المعنى بقوله الراجز:

اصبر عناق إنه شر باق قد سن قومك ضرب الأعناق

وقامت الحرب بنا عن ساق(٣)

---

(١) البخاري، صحيحه، كتاب التفسير، (سورة السجدة) ٦/١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) سورة القلم: ٤٢.

(٣) انظر: الحاكم، المستدرك ٢/٤٩٩ ـ ٥٠٠ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. وانظر أيضاً: السيوطي، الإتقان ٢/٩٠، ٤٩، وأبو حيان، البحر المحيط ٨/٣١٦، والطبري، جامع البيان ٢٩/٢٨، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٨/٢٢٥.

البعد عن التفسير السياسي والمذهبي:

ابتعد الصحابة رضوان الله عليهم عن الخوض في تفسير الآيات التي لها اتصال بالصراع السياسي والخلافات المذهبية وأجلوا القرآن أن يزج به في هذه الفتن.

ومما يدل على ذلك أن علي بن أبي طالب قال لابن عباس ـ حين أرسله إلى الخوارج ـ يوصيه ـ «اذهب إليهم فخاصمهم ولا تحاجهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة»، فرد عليه ابن عباس قائلًا: «يا أمير المؤمنين، فأنا أعلم بكتاب الله منهم، في بيوتنا نزل، قال صدقت، ولكن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن خاصمهم بالسنن، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً»[(١)].

لقد رفض علي بن أبي طالب أن يخاض بالقرآن في خضم هذه الاضطرابات السياسية والمذهبية، لأن من القرآن ما يحتمل أكثر من معنى، وكل فريق حريص على أن يدعم موقفه ويثبت اعتقاده ويدحض دعوى خصومه ويفند حجته، لذلك سيتعسف ـ لا محالة ـ في البحث عن النص الذي يوافق هواه ويخدم مصلحته، وفي قسر

---

(١) السيوطي، الإتقان ٢/١٤٥.

معناه على الوجه الذي يريده، ولا شك أيضاً أن باقي الفرق والأحزاب السياسية لن تسكت على ذلك، بل ستحاول جاهدة أن تثبت في نفس النص وفي غيره من النصوص، عكس ما تعسف الفريق الأول في تأويله، وهذا عبث بالقرآن العظيم، لذا يجب الترفع به عن المهاترات السياسية والتصورات المذهبية، ويجب صونه من افتراءات المجترئين على تأويله.

ولقد نفذ ابن عباس وصية علي بن أبي طالب، فذهب إلى الخوارج الحرورية، واجتمع بهم، وسألهم عما ينقمون على الإمام علي بن أبي طالب، فذكروا مشكلات منها: أنه حكم الرجال في دين الله، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1]، يقصدون بتحكيم الرجال ما كان من أمر أبي موسى الأشعري مع عمرو بن العاص، وقد رد ابن عباس هذا الإشكال ودحضه بالقرآن، فقال: إن علياً إذا كان قد حكم الرجال في دين الله، فإن الله تعالى قد صير حكمه إلى الرجال، وذلك في مسائل منها: التحكيم في الخلاف بين الزوجين، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا

(١) سورة الأنعام: ٥٧، وسورة يوسف: ٤٠، ٦٧.

﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾[1]. ومنها تقويم مثل ما يصطاده المحرم بالثمن السائر، واحتج بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[2] وناشدهم الله، أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وإصلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم»[3].

ومن أبرز الأمثلة على ابتعاد الصحابة عن التفسير السياسي والمذهبي ما رواه البخاري من أن رجلًا قال لابن عمر رضي الله عنه: «يا أبا عبدالرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[4]، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟[5]، فقال ابن عمر: يا ابن أخي أغتر بهذه الآية ولا أقاتل أحب من أن أغتر بهذه الآية التي يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ

---

(١) سورة النساء: ٣٥.

(٢) سورة المائدة: ٩٥.

(٣) الشاطىء الاعتصام ٢/١٨٨ ـ ١٨٩.

(٤) سورة الحجرات: ٩.

(٥) يشير إلى القتال الدائر بين علي ومعاوية، وقد اعتزله ابن عمر.

﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٣﴾[1]. فلم يقنع الرجل، وقال: فإن الله يقول: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[2]، فقال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، إذ كان الإسلام قليلًا، فكان الرجل يفتن في دينه، إما يقتلوه وأما يوثقوه، حتى كثر الإسلام، فلم تكن فتنة». فلما رأى الرجل أنه لم يظفر ببغيته في تفسير سياسي أو مذهبي لهذه الآيات ينتزعه من ابن عمر ثم يصيح به، كشف عن خبيئة نفسه صراحة، فقال: «فما قولك في علي وعثمان؟!»[3].

الصحابة والإسرائيليات:

الإسرائيليات عبارة عن أخبار وروايات وأقاصيص وحكايات مدسوسة في بعض التفاسير وكتب الحديث والتاريخ والوعظ والتصوف..

وموضوعها الأساسي قصص الأنبياء السابقين وأقوامهم من الأمم القديمة.

---

(١) سورة النساء: ٩٣.
(٢) سورة الأنفال: ٣٩.
(٣) البخاري، صحيحه، كتاب التفسير، (سورة الأنفال)، قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ٧٨/٦ ـ ٧٩.

والإسرائيليات أباطيل زائفة وأكاذيب موضوعة، يغلب عليها الخيال الشعبي والطابع الخرافي الأسطوري، ويختلط فيها ـ بصورة مزعجة ـ الواقع بالوهم، والصدق بالكذب، والحق بالباطل.

والإسرائيليات جمع إسرائيلية، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى الإسرائيلين وترجع هذه النسبة إلى سببين رئيسيين:

أولهما: أن الإسرائيليين هم المصدر الأساسي لهذه الروايات الإسرائيلية، لأنهم حرفوا كتبهم بأيديهم، وغيروها وبدلوها، ونسبوها إفكاً وزوراً إلى الله تعالى ليحققوا مطامعهم الشخصية وأهواءهم الأنانية، وينفثوا فيها سمومهم، ويصبوا حقدهم المقيت ليشتروا به ثمناً قليلًا، وقد استعانوا في عملهم الشنيع هذا بخيالهم المريض وأوهامهم البشعة واستقوا مادتهم الأساسية من عقائد وديانات الشعوب التي عاشوا بينها واتصلوا بها، ولذا جاءت الكتب الإسرائيلية خليطاً ممجوجاً من الملل القديمة والنحل البائدة كالفرعونية واليونانية والآشورية والبابلية والفارسية وغيرها، ومزجوا هذا الخليط بنفثاتهم وسمومهم. ولذا يقول فان فلوتن: «يطلق علماء المسلمين كلمة «إسرائيليات» على جميع العقائد غير الإسلامية، ولا سيما تلك العقائد والأساطير التي دسها

اليهود والنصارى في الدين الإسلامي منذ القرن الأول الهجري»[1].

والآخر: أن الإسرائيليين هم أشد أعداء الإسلام كيداً له وحنقاً عليه، وأكثرهم دساً لهذه الخرافات والأباطيل بين أهله وفي كتبهم وتراثهم. وليس بخافٍ أن اليهود اشتبكوا مع الإسلام اشتباكاً عقلياً عنيفاً منذ أن دخل المدينة بصفة خاصة، ثم انقلب هذا الاشتباك العقلي إلى حروب ضارية انتهت بانتصارِ الإسلام واستئصال شأفة اليهود من المدينة المنورة ومن الحجاز كله، وفر اليهود إلى أذرعات بالشام وإلى الكوفة واليمن. وقد أيقن اليهود أن لا قبل لهم بمواجهة جدل القرآن ونقاشه الفكري العتيد، فلجؤوا ـ كعادتهم ـ إلى أسلوب الحرب السرية التي تقوم على الدس في الخفاء والطعن من الخلف والكيد والتآمر، وقد تمثل ذلك في محاولاتهم بث الأفكار المتطرفة وترويجها مثل البداء والرجعة والتناسخ والحلول والتشبيه والتجسيم والمهدي والأسباط الإمام المعصوم وخاتم الأوصياء.. الخ تلك الأفكار الهدامة التي ظهرت عند غالية الفرق المذهبية في

---

(١) فان فلوتن، السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكي إبراهيم ص١٠٩.

صورة أقاصيص وأخبار نسبوها للأنبياء والأولياء ونسجوها حول الذات الإلهية والنصوص المقدسة، وسربوها إلى التراث الإسلامي، ودسوها في بعض كتب التفسير والحديث وغيره، وهي ما تعرف بالإسرائيليات.

وتتسم الإسرائيليات بسمات مميزة يعرفها المشتغلون بهذه الدراسات، فهي تولع بتحديد الألوان والأسماء والأماكن والأعداد والأعمار والمسافات والأطوال والتواريخ. فتتحدث عن لون كلب أصحاب الكهف، وعن اسم الغلام الذي قتله الخضر، واسم الحوت الذي التقم يونس، واسم الذي عنده علم من الكتاب، واسم كلب أصحاب الكهف، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وأسماء الحيوانات التي حملها نوح في سفينته.. الخ، ومن الأماكن تذكر الإسرائيليات أن آدم هبط بالهند، وأن حوت يونس جرى في بحر الروم ثم النيل ثم بحر فارس ثم دجلة.. وأن سفينة نوح رست بنافردى.. الخ. ومن الأعداد تزعم الإسرائيليات أن من خرجوا مع قارون في زينته كانوا على أربعة آلاف دابة، وأن عدد أهل مشورة بلقيس كانوا ثلثمائة واثني عشر كل رجل منهم على عشرة آلاف، وأن عدد بني إسرائيل الذين عبر بهم موسى البحر كانوا ستمائة ألف مقاتل وعشرين ألفاً فصاعداً، وتبعهم فرعون على ألف

ألف حصان ومائتي ألف حصان، وأن ما بين الصخرة ببيت المقدس وبين السماء ثمانية عشر ميلًا، وأنه شيع جنازة هارون أربعون ألفاً من بني إسرائيل كل منهم يسمى هارون، وأن طول سفينة نوح ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً.. الخ. ومن التواريخ تذكر الإسرائيليات أن سفينة نوح استقلت بهم في عشر خلونٍ من رجب، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم، وأنهم أُهبطوا إلى الأرض في عشر ليال خلون من المحرم..الخ.

وأسلوب الإسرئيليات مولع بالدقائق الخبيئة، والتفاصيل التي لا سبيل إلى التثبت منها والخرافات والأوهام، وتهويل الحقير وتحقير العظيم، وعبادة الذهب والإطناب في ترديد أسماء الجواهر، والإكثار من ألفاظ المواقعة الجنسية والحبل والحيض والدم، وأحداثها تقوم على المفارقات العجيبة والمصادفات الغريبة.

وهكذا تقدم الإسرائيليات ـ في الحقيقة ـ معلومات تافهة لا تغني شيئاً ولا تفيد، بل إن خطرها عظيم، وذلك لأنها تفسد العقيدة الصحيحة بما تنطوي عليه من تشبيه لله وتجسيم ووصفه بما لا يليق بجلاله وكماله وعظمته تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وكذلك لأنها تصور الأنبياء عليهم السلام في صور قبيحة مخجلة

وتنسب لهم الفضائح التي يندى لها الجبين خجلًا، وتنفي عنهم العصمة، وتستهزىء بهم ولا توقرهم ولا تعظمهم، بل تنسب إليهم الكبائر والفواحش، وتصورهم منصرفين إلى الشهوات والمعاصي، وهكذا تزعزع العقيدة وتصدع الإيمان، وتصور الدين كركام من الخرافات والأساطير والأوهام والأباطيل. كما أنها تذهب الثقة بمن تنسب إليهم هذه الروايات القبيحة المنكرة إفكاً وزوراً من الصحابة والتابعين والصالحين.

وهكذا تصرف الإسرائيليات الناس عن الدين القويم وعن الإيمان الحق، وتوجههم إلى تفاصيل تافهة ومتاهات من الضلال والزيغ[١].

ولكن الله سبحانه وتعالى قيض للأمة الإسلامية علماء مؤمنين به وبنبيه وبدينه، جهابذة أفنوا أعمارهم في العمل على حماية الدين وصونه من الأدناس، فدرسوا الإسرائيليات ومحصوها وسبروا غورها ونبهوا إلى خطرها، وحذروا من شرها، وصنفوا في ذلك الكتب والبحوث.

وإذا كانت الإسرائيليات هي أساطير وخرافات

---

(١) د. محمد حسين الذهبي، الإسرئليات في التفسير والحديث ص٣٩ ـ ٤٤.

الأديان القديمة والملل البائدة، فقد بدأت معرفة العرب لها منذ وقت مبكر قبل ظهور الإسلام وذلك حين دخلت الأديان والملل شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام بقرون عديدة، وعاش أصحابها مع القبائل العربية، وقامت بينهم وبين العرب معاملات تجارية. ولقد قام أصحاب هذه الديانات والملل بإنشاء مراكز دينية لهم مثل «بيت هام مدراس» وهو مركز يهودي، وكان بمنطقة نجران مركز للنصرانية، كما انتشرت صوامع الرهبان والأحبار على الطرق الصحراوية، وقام اليهود والنصارى بنوع من النشاط التبشيري، وترجموا قطعاً من كتبهم إلى العربية ليتسنى لهم إقناع العرب بالدخول في ديانتهم. وقد أدى ذلك كله إلى اعتناق أقوام من العرب لهذه الديانات.

لقد دخل اليهود إلى شبه الجزيرة العربية على شكل هجرات جماعية قبلية نازحة من بلاد الشام منذ السبي وخراب الهيكل والشتات، وكان ذلك في الربع الأخير من القرن الأول الميلادي تقريباً، واستقر بعضهم في يثرب (المدينة المنورة) وما حولها، مثل تيماء وفدك وخيبر ووادي القرى، وكان منهم بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو قينقاع وبنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو زعورا وبنو زيد وبنو عوف وبنو القصيص.

وكان معهم من غير بني إسرائيل بطون من العرب

منهم بنو الحرمان حي من اليمن، وبنو مرتد وبنو نيف وهما حيان من بلى، وبنو معاوية حي من بني سليم، ثم من بني الحارث بن بهنة، وبنو الشظية حي من غسان[١]. وكذلك استقر بعض اليهود في اليمن وهم يهود حمير، وكان من ملوكها يوسف ذو نواس اليهودي.

وقد أثر الجوار والتعايش بين اليهود والعرب وكذلك النشاط التبشيري إلى تهود أقوام من العرب بعضهم من الأوس والخزرج ومن بني الحارث بن كعب، ومن غسان، ومن جذام[٢].

وأما النصرانية فقد دخلت شبه الجزيرة العربية منذ منتصف القرن الأول الميلادي تقريباً، وذلك مع الرهبان النصارى الذين كانوا يفرون إليها هرباً من بطش القياصرة واضطهادهم، فقد وقف قياصرة الروم من دعوة المسيح عليه السلام موقفاً عدائياً مقيتاً، وكفروا به وأنزلوا به وبأتباعه أشد أنواع العذاب، وبعد عهد طيباروس الذي كان معاصراً للمسيح استمر اضطهاد قياصرة الروم للمسيحيين، واشتد تنكيلهم بهم، فكانوا يقتلونهم قتلًا بشعاً، ويلقونهم أحياء إلى الأسود

---

(١) عباس محمود العقاد، مطلع النور ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) اليعقوبي، التاريخ ٢٥٧/١.

الجائعة، ويلبسونهم جلود الحيوانات ويرمونهم إلى الكلاب لتنهشهم، أو يلبسونهم ثياباً مطلية بالقار ويشعلون فيها النار ليجعلوها مشاعل يستضاء بها، ويذبحونهم قرباناً للآلهة. . ولقد قتل منهم دقلديانوس ما لا يقل عن مائة وأربعين ألف شهيد أو ثلاثمائة ألف شهيد.

هذه الاضطهادت كانت سبباً في فرار المسيحيين بدينهم، وكانت شبه الجزيرة العربية من الأماكن التي يفرون إليها طلباً للنجاة.

هذا من جانب ومن جانب آخر كانت الإنقسامات الحادة بين المسيحيين أنفسهم حول طبيعة المسيح عليه السلام بين الناسوت واللاهوت، وقيام الصراع الرهيب بينهم، كل منهم يحاول نصرة معتقده الخاص، وتعدد الأناجيل تبعاً لهذه الخلافات وتضاربها فيما بينها، وتتابع مجامعهم التي كانوا يعقدونها لبحث هذه الخلافات ابتداء مِن مجمع أورشليم بعد ترك المسيح له باثنين وعشرين سنة. . المهم أن ذلك كله كان سبباً آخر لفرار أحبار النصارى ورهبانهم إلى شبه الجزيرة العربية وغيرها للنجاة بعقيدتهم من نيران الفتن الطائفية المشتعلة، ومن بطش خصومهم، ولعل مجمع نيقية الذي انعقد سنة **٣٢٥**م يبين مدى التناحر بين المسيحيين حول عقائدهم، فقد اجتمع

فيه ألفان وثمانية وأربعون من الأساقفة «وكانوا مختلفين في الآراء والأديان»[1]، بلفظ ابن البطريق المؤرخ المسيحي، وقد تمخض هذا المجمع عن إقرار وتثبيت عقيدة القائلين برب واحد هو يسوع المسيح ابن الله الوحيد، وتحريق كل الأناجيل والرسائل التي تخالف ذلك، ولعن كل من لا يؤمن بهذه العقيدة، وكان كل من يخالف ذلك يتعرض للبطش والتنكيل. ومن ثم كان هروب الأساقفة إلى بلاد العرب نتيجة هذا الصراع العقائدي والفتن الملية.

وقد استقرت النصرانية في بعض أجزاء من شبه الجزيرة العربية وبصفة خاصة في اليمن والأطراف الجنوبية من العراق والشام، وفي غربي الحجاز في اليمامة قرب سواحل الخليج العربي، وأسس النصارى أسقفيات عديدة لهم في ظفار ونجران والحيرة وغيرها[2]. كما كان للسريان النساطرة فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تعلم اللاهوت والثقافة اليونانية باللغة السريانية، وكذلك كان لليعاقبة مدارسهم في

---

(١) سعيد ابن البطريق (افيتثيوس)، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص١١٦ ـ ١١٧.

(٢) عباس محمود العقاد. مطلع النور ص٧٥ نقلًا عن جورج سيل في المقدمة ترجمته للقرآن.

رأس عين وقنسرين على الفرات[1].

وقد تنصر من أحياء العرب قوم من قريش من بني أسد بن عبدالعزى، منهم عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل، ومن بني تميم بنو امرىء القيس بن زيد مناة، ومن ربيعة بنو تغلب وأفناء بكر والنمر، ومن اليمن نجران ومذحج وبهراء وسليح، كما تنصر أيضاً أقوام من طيىء وقضاعة وتنوخ وغسان[2].

وكانت المجوسية هي الدين الأكبر والملة العظمى السائدة في بلاد فارس، ومنها دخلت إلى ما جاورها من بلاد العرب مثل الحيرة، وهجر(البحرين)، وفشت في بني عبدالقيس وفي تميم خاصة، وقد ذكر أن زرارة بن عدس وابنه حاجباً ـ وهما من سادات تميم ـ قد اعتنقا المجوسية[3]، وكذلك كان الأقرع بن حابس مجوسياً.

وكانت الصابئة الحرانية أو الحرنانية عبدة الكواكب في حران التي تقع في الوسط بين أوديسا والرها على نهر

---

(١) عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي ص١٥٥.

(٢) اليعقوبي، التاريخ ٢٥٧/١، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ص١٩١، الجاحظ، الرسائل (الرد على النصارى) ٣١٣/٣، ابن قتيبة، المعارف ص٢٦٦.

(٣) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٤٩١ .والمقدسي، البدء والتاريخ ٣٠/٤.

بلياس أحد روافد الفرات العلي، وكانت لهم هياكل مكرسة للكواكب والنجوم. وكذلك كانت الصائبة المندانية حول ضفتي الرافدين وبخاصة المناطق السفلى منهما المسماة بالبطائح حيث يصب النهران مياههما في الأهوار وحيث يلتقيان في مدينة القورنة قبل أن يصبا في الخليج العربي. وأيضاً في بطائح عربستان من بلاد إيران حول نهر كارون الذي يصب في الخليج العربي. والصائبة المندائيون هم المغتسلة الذين تقوم عقيدتهم على الاغتماس والاغتسال بالماء الجاري، يتعمدون كالنصارى، وهم غنوصيون، يعظمون النجوم، ويمارسون التنجيم، وقبلتهم إلى الشمال حيث النجم القطبي، ويعتقدون أن مقر الملائكة في الكواكب[1].

وعلى الرغم من أن الصابئة كانوا يحيطون ديانتهم بالسرية والتكتم، ويرفضون دخول أي شخص فيها، وينطوون على أنفسهم وينعزلون عن العالم من حولهم ـ فقد أثروا في الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام، فعبد بعض العرب أجراماً سماوية[2]، وعبد بعضهم أصناماً تمثل بعض النجوم والكواكب، مثل عبد شمس وهم بطن

---

(١) الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، الكتاب الأول ص٧ ـ ٨، هـ ١٦، ٢٠ ـ ٢١، ٢٥.

(٢) الآلوسي، بلوغ الأرب ٢/٢٩٣.

من قريش قيل إنهم سموا بذلك الصنم، واعتقد قوم منهم في الأنواء حتى لا يتحرك أحدهم ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء، ويقول مطرنا بنوء كذا، ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة يعبدهم، ومنهم من كان يعتقد أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[1].

وهكذا كان تسلل الإسرائيليات نتيجة دخول هذه الديانات والملل إلى شبه جزيرة العرب قبل الإسلام بقرون، ودخول أقوام من العرب فيها، وقيام نشاط تبشيري ووجود مراكز دينية يهودية ونصرانية، وعوامل الجوار والتعايش بين العرب وأصحاب هذه الديانات، والصلات التجارية بينهم، ولقد كان للعرب رحلات تجارية أشهرها رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام، وكان باليمن والشام يهود ونصارى ومراكز دينية يهودية ونصرانية، وكانت صوامع الرهبان والأحبار منتشرة على الطرق الصحراوية.. وكل هذا ساعد على تسرب الإسرائيليات إلى الثقافة العربية منذ عهد مبكر قبل ظهور الإسلام.

وبالإضافة إلى ذلك فقد وجدت في هذا الوقت

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل ٢٣٨/٢.

بعض قطع مترجمة من كتب اليهود والنصارى إلى العربية، إذ لا شك أن المتهودين والمتنصرين من العرب كانوا بحاجة إلى هذه الترجمة العربية ليتسنى لهم أن يقيموا الدين الذي اعتنقوه يهودياً كان أم نصرانياً، وأن يتلوا فقرات من كتب هذا الدين باللسان العربي. ومن الأدلة على وجود هذه القطع اللاهوتية المترجمة ما ذكرته السيدة عائشة في حديثها عن بدء الوحي حيث قالت عن ورقة بن نوفل إنه «كان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب»[1]، وفي رواية أخرى قالت: «وكان يكتب الكتاب العربي فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب»[2]. ونفهم من هذين النصين أن ورقة كان يقوم بترجمة أو نقل فقرات أو قطع من الإنجيل العبراني إلى العربية، وأعتقد أنه إنجيل متى ـ أقدم الأناجيل وأولها تدويناً ـ لأن الأناجيل الثلاثة الأخرى المنسوبة إلى مرقس ولوقا ويوحنا كتبت أصولها باليونانية، بخلاف إنجيل متى، فهو الوحيد الذي كتب أصلًا بالعبرانية كما تؤكد دائرة المعارف البريطانية، وكما

---

(١) البخاري، صحيحه، بدء الوحي ٢/١.

(٢) البخاري، كتاب التعبير، أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة ٣٨/٩.

يكاد يجمع على هذا المفسرون للأناجيل والمؤرخون لها.

واستمر تسرب الإسرائيليات إلى الثقافة العربية بعد ظهور الإسلام، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾[1]، والمقصود بأساطير الأولين في هذه الآية ما تعورف عليه بالإسرائيليات، وتشير الآية إلى معرفة كفار العرب لهذه الإسرائيليات أو الأساطير، كما تشير أيضاً إلى فريتهم أن هذه الإسرائيليات تملى على النبي ﷺ، وهذا الإملاء لا بد أن يكون بالعربية، الأمر الذي يدعم وجود بعض الترجمات العربية لطائفة من الإسرائيليات. ولقد صرح الصحابي الجليل أبو هريرة بذلك، فقال: «كان أهل الكتاب يقرؤون في التوارة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام»[2].

وإلى جانب النشاط المحدود في الترجمة كانت هناك عوامل أخرى ساعدت على تسلل الإسرائيليات إلى الثقافة العربية والإسلامية، منها تلك المشادات العقدية

---

(١) سورةالفرقان: ٥.

(٢) البخاري، صحيحه، كتاب التفسير، (سورة البقرة) ٦/٢٥.

العنيفة التي نشبت بين بعض أهل الكتاب والنبي ﷺ فقد سأله اليهود عن أهل الكهف وذي القرنين والروح، وجادلوه في حد الرجم وغير ذلك، وحاوره النصارى حول طبيعة المسيح عليه السلام، وطبعي أن الإسرائيليات كانت مادة أساسية في تلك الاشتباكات العقلية. ولقد حكى أحد أحبار اليهود للنبي ﷺ بعض إسرائيلياتهم، فقال له: «يا محمد، إنا نجد الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه»[1].

ومن هذه العوامل أيضاً أنه دخل في الإسلام أقوام من أصحاب الملل البائدة ومن اليهود والنصارى، وكان منهم أحبار ورهبان من أهل الكتاب احتلوا مراكز بارزة في المجتمع الإسلامي مثل أُبَيّ بن كعب وعبدالله بن سلام وتميم الداري. ولكن كان بعض من أسلم من أهل الكتاب لم يستطع التخلص من رواسب دينه القديم. فكان يحدث عنه كما فعل كعب الأحبار ووهب بن منبه. وبعضهم دخل في الإسلام مراءاة ليكيد له ولأهله مثل عبدالله بن

---

(١) البخاري، صحيحه، كتاب التفسير، (سورة الزمر) ١٥٧/٦.

سبأ، الذي دَسَّ إسرائيلياته بين عوام المسلمين، وأقنع بها بعض أصحاب الفرق السياسية والمذهبية، خاصة الغالية منهم، وتلقفها القصاص الشعبيون، وبعض الزهاد الذاهلين وراحوا يحكونها للناس.

ويمكن تحديد موقف الإسلام من الإسرائيليات على النحو التالي:

لا بأس بتصديق ما ثبتت صحته من الإسرائيليات بموافقته ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ الصحيحة الثابتة، أو بما قام على صحته برهان ودل على ذلك دليل ثابت مقبول. والواقع أن ما احتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله نصب على الحق فيه دليلًا.

أما ما ثبت كذبه من الإسرائيليات بمخالفته ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ أو بقيام الدليل والبرهان على كذبه، فالواجب على المسلمين تكذيبه ودحضه، وإنكاره وطرحه، والتنبيه عليه والتحذير منه.

ومن صحح غير الصحيح عامداً فقد كذب، ومن كذب فقد كذب على الله ورسوله، وليتبوأ مقعده من النار، وإن كان جاهلًا فقد أخطأ خطأً كبيراً.

وفي ضوء هذا نفهم حديث رسول الله ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن**

كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1]. فقد أذن هذا الحديث في رواية الإسرائيليات، والرواية هنا معناها الحكي والقص، وليس معناها الدعوة لها أو الأمر بها، وهذا واضح من الطباق بين «بلغوا» و «حدثوا» وفرق كبير بين التبليغ بالدعوة ومجرد الحديث القصصي.

فرواية الإسرئيليات التي لم ير الرسول ﷺ بهابأساً، هي الحكاية القصصية التي تحكي علي سبيل الاستئناس والتسلية والترفيه، وإشباع الشوق الفطري في النفس الإنسانية إلى استماع الغريب والعجيب والمثير، وكذلك لاستخلاص العبرة من هذه القصص، مصداقاً لقوله تعالى في ختام سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾[2]، وواضح من هذه الآية الكريمة أن الإسرئيليات المسموح بروايتها هي

---

(١) البخاري، صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر من بني إسرئيل ٢٠٧/٤ .وانظر أيضاً: الترمذي، سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل ١٤٧/٤ حديث رقم ٢٨٠٧. وأبو داود، سننه، كتاب العلم، باب الحديث عن بين إسرائيل ٢١٥/٢.

(٢) سورةيوسف: ١١١.

التي ليست حديثاً يفترى، ولكنها الصحيحة الثابتة صحتها بتصديق القرآن لها وحديث الرسول ﷺ، وذلك من أجل استخلاص العبرة والموعظة.

وأما الإسرائيليات غير الصحيحة فلا تروى على سبيل الاستئناس بها ولا التسلي ولا الاستشهاد ولا استخلاص العبرة منها، فليس في الكذب والباطل والفاسد والمفترى أنس ولا تسلية ولا عقيدة ولا عبرة، وإنما تروى على سبيل التحذير منها والتنبيه على خطرها، والتعريف بما فيها من سوء وأذى، حتى يحذر المسلمون منها، ويتقوا شرها، ولا يقعوا في شركها، ولا يخلطوا بينها وبين الصحيح من الإسرائيليات، ولا ينساقوا وراء من يغويهم بها، بل يكشفوا زيفه وجهله، وفساد معتقده وسوء بدعته.

وأما ما لا نعرف حقيقة صدقه أو كذبه من الإسرائيليات فعلينا دراسته وتمحيصه ونقده وسبر غوره حتى تنكشف حقيقته ويعلن أمره، فإذا ثبتت صحته التحق بالصحيح وأخذ حكمه، وإذا ثبت كذبه التحق بغير الصحيح وأخذ حكمه.

وفي مجال الإذن برواية الإسرائيليات يجوز نقل الخلاف عنهم، فقد نقل الله سبحانه وتعالى خلافهم في عدة أصحاب الكهف، وذلك في قوله سبحانه:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾[١].

ففي هذه الآية الكريمة تحدث الله سبحانه وتعالى عن ضلال أهل الإسرائيليات واختلافهم في عدد أصحاب الكهف، ونقل عنهم هذا الخلاف، ولكنه تعالى في نفس الوقت علمنا ما يجب علينا مراعاته من الآداب في هذا الصدد، فننقل عنهم الخلاف، ولكن لا نجادلهم فيه إلا مجادلة خفيفة موجزة بغرض كشف وجه الحق، ولا نغوص معهم في المناقشات، ولا نخوض فيما يخوضون فيه، لأنهم يرجمون الغيب، ولا يعلم الحقيقة إلا عدد قليل منهم، وأكثرهم كاذبون، ولأنه لا طائل من وراء هذا الجدل العقيم.

وفي آيات أُخر يطلعنا الله سبحانه وتعالى على سبب آخر من أسباب عدم الإسهاب في مجادلتهم، وهو أنهم قوم كذابون، حرفوا كتابهم بأيديهم وبدلوه، كما أنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون وهدفهم من ذلك كله إضلال المسلمين وإفسادهم وردهم عن دينهم

---

(١) سورة الكهف: ٢٢.

الحق. قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[2]، وقال تبارك: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾[4].

وإذا كانت هذه الآيات تصم اليهود بتحريفهم كتابهم فهناك آيات أخر تشرك معهم في هذا العمل الشنيع بعض النصارى إذ يقول تعالى عن أهل الكتاب من يهود ونصارى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾[5]. وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾[6].

---

(١) سورة النساء: ٤٦.

(٢) سورة المائدة: ٤١.

(٣) سورة المائدة: ١٣.

(٤) سورة البقرة: ٧٩.

(٥) سورة آل عمران: ٧٨.

(٦) سورة آل عمران: ٧١.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن هدف كفار أهل الكتاب من التحريف والتلبيس والإضلال هو رد المسلمين عن الإسلام، وإغوائهم وإضلالهم، ومبعث ذلك أنهم يحسدون المسلمين على النور الذي يتبعونه، وعلى الرغم من أن هؤلاء الكفار الحاسدين يعلمون الحق، إلا أنهم يكابرون ويعاندون، قال تعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا**﴾[2].

نهي إلهي صريح عن مبادأة أهل الكتاب بالسؤال، ونهي عن اللجوء إليهم لطلب العلم والمعرفة، وذلك لأنهم كذبة فجار يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهو يعلمون، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به**»[3]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: «آمنا بالله وما أنزل إلينا»** الآية[4].

---

(١) سورة البقرة: ١٠٩.

(٢) سورة الكهف: ٢٢.

(٣) أحمد، المسند ٣٨٧/٢.

(٤) البخاري، صحيحه، كتاب التفسير، سورة البقرة ٢٥/٦. والآية هي رقم ١٣٦ من سورة البقرة.

وعلى هذا المنهج القويم سار الصحابة رضوان الله عليهم فكانوا يقبلون من الإسرائيليات الرواية التي تتفق ومعاني القرآن الكريم وما ثبت من السنة الصحيحة، ومن الأمثلة على ذلك استئناس ابن مسعود رضي الله عنه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[1]. فقال ابن مسعود: «مكتوب في التوارة: على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. (ومكتوب)[2] في القرآن: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[3].

ومن هذه الأمثلة أيضاً ما روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص حين سأله أحد التابعين وهو عطاء بن يسار عن صفة رسول الله ﷺ في التوارة، فقال

(١) سورة السجدة: ١٦، ١٧.

(٢) ما بين القوسين من عندي لتوضيح المعنى.

(٣) الطبري، جامع البيان ٢١/١٠٣ ـ ١٠٤ .وانظر أيضاً القرطبي، الجامع لأحكام الطبري، جامع البيان ١٤/١٠٤، والسيوطي، الدر المنثور ٥/١٧٦، والحاكم، المستدرك ٢/٤١٤، وقد صححه الذهبي وتابعه.

«أجل والله إنه لموصوف في التوارة ببعض صفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً»[1]، فقد قبل عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما هذه الرواية لأنها توافق بعض معاني قوله تعالى في صفة رسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾[2]، كما أن هذه الرواية توافق كثيراً من المعاني القرآنية، لذا لم يجد عبدالله بن عمرو ثمة بأساً في الاستئناس بها.

وكان الصحابة إذا وجدوا رواية إسرائيلية تخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتتعارض مع بدهيات العقل وبراهينه، أنكروها وردوها، ومن الأمثلة على ذلك ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه حين جاءه جندب

---

(١) البخاري، صحيحه، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق ٨٧/٢، ورواه أيضاً في كتاب التفسير، (سورة الفتح) ١٦٩/٦ ـ ١٧٠.

(٢) سورة الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦.

البجلي، وكان جندب قد عاد من الشام ولقي بها كعب الأحبار، فقال له ابن مسعود: «من أين جئت؟ قال: من الشام، قال: من لقيت؟ قال لقيت كعباً، فقال: ما حدثك كعب؟ قال: حدثني أن السموات تدور على منكب ملك. قال فصدقته أو كذبته؟ قال: ما صدقته ولا كذبته. قال: لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورحله، وكذب كعب، إن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾[1].

ونتيجة لهذا المنهج القويم في الإسرائيليات وردها كان أثر الإسرائيليات في تفسير الصحابة باهتاً ضعيفاً، فلم ينقل الصحابة المفسرون عن أهل الكتاب إلا النزر اليسير جداً من الروايات المتعلقة ببعض قصص الأنبياء السابقين، ولا تمس العقيدة ولا التشريع قط بل توافق معاني القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

ولقد ادعى المستشرق اليهودي النمساوي إجنتس جولد زيهر أن ابن عباس كان يلجأ في بعض تفسيره إلى كعب الأحبار وعبدالله بن سلام وأبي الجلد جيلان بن

---

(١) الطبري، جامع البيان ١٤٤/٢٢، والآية التي استشهد بها ابن مسعود لرد رواية كعب الإسرائيلية هي الآية رقم ٤١ من سورة فاطر.

فروة - وهم من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام - باعتبارهم من المصادر التي يرجو عندها العلم حين يخامره الشك في مسألة من المسائل[1]، وهو في ذلك يوافق بروكلمان ويؤيد قوله[2]، ويحاول أن يثبت زعم سلفه أوتولوث الذي ادعى من قبل أن مدرسة ابن عباس التفسيرية ذات مسحة يهودية[3]، وتابعهم أحمد أمين على ذلك[4].

ولقد قام الباحثون المسلمون بدراسة هذا الزعم، وحصروا كل ما ورد من سؤالات ابن عباس لهؤلاء الكتابيين الذين دخلوا في الإسلام، وقد جاءت نتيجة هذه الدراسة ترفض هذا الزعم وتثبت كذبه، وذلك على الوجه التالي:

أن ابن عباس لم يتصل بأبي الجلد اتصال المتعلم بالعالم، ولم يقعد بين يديه مقعد التلميذ، وإنما زعمت الرواية أن ابن عباس لم يتصل بأبي الجلد إلا كتابة، ولم يكتب إليه إلا مرة واحدة.

---

(١) جولد تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة د. عبدالحليم النجار - ص٨٥ - ٨٦.
(٢) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ٤/٧.
(٣) جولد زيهر، مذاهب التفسير ص٨٧.
(٤) أحمد أمين، فجر الإسلام ص٢٠١.

أن كتاب ابن عباس لأبي الجلد لا يحتوي إلا على سؤال واحد عن المعنى اللغوي للفظين فقط هما «الرعد» و «البرق» اللذان ورد ذكرهما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾[2].

ولقد قام المحقق الكبير الشيخ أحمد شاكر بتحقيق أسانيد هذه الروايات وأثبت أنها كلها إما مرسلة وإما مبهمة أو منقطعة[3].

وإذا كانت أسانيد هذه الروايات ضعيفة لا تقوم بها الحجة، فإن متن هذه الروايات ضعيف أيضاً، لأن كلمتي «الرعد» و «البرق» كلمتان عربيتان معروف معناهما لدى عامة العرب وليس خافياً ولا غامضاً ولا مشكلًا، وابن عباس هو «ترجمان القرآن» فالزعم بعدم معرفته معنى هاتين الكلمتين زعم ساقط أصلًا، إذ يستحيل أن يعرف ترجمان القرآن معاني القرآن كله ـ كما تشهد على ذلك آثاره التفسيرية الغزيرة ـ ويقف

---

(١) سورة البقرة: ١٩.

(٢) سورة الرعد: ١٢.

(٣) الطبري، جامع البيان (بتحقيق أحمد شاكر) الآثار: ٤٣٤، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥.

عاجزاً عن معرفة معنى كلمتين اثنتين فقط يعرف معناهما أي عربي بل أي متحدث بالعربية حتى ولو كان أعجمياً تعلم العربية.

ولقد كانت الجزيرة العربية كثيراً ما تتعرض للعواصف والأعاصير والأمطار والسيول، أفلم يشاهد ابن عباس شيئاً من ذلك قط؟ ولقد تحدث شعراء العرب عن تلك الظواهر الطبيعية التي كانت تجتاح الجزيرة العربية، كما نجد في معلقة امرىء القيس مثلاً ومعلقة لبيد بن ربيعة وغيرهما، ولا يخفى أمر المعلقات على أحد من العرب، وابن عباس كان يحفظ من الشعر العربي الكثير، وكان محيطاً به، وكان موسوعة في حفظه، وأرسى دعائم الاستعانة بالشعر العربي في التفسير، وهو القائل: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه»[1]. ولذا فمن غير المتصور ألا يكون ابن عباس قد قرأ قول امرىء القيس في معلقته:

أصاح ترى برقاً أريك وميضه

كلمع اليدين في حبى مكلل

---

(١) السيوطي، الإتقان ٦٧/٢.

يضيء سناه أو مصابيح راهب

أهان السليط بالذبال المفتل[١]

ثم هل يعرض ابن عباس عن سؤال الصحابة الذين عايشوا الوحي وشاهدوا التنزيل ويجاهد الكتابة إلى رجل يهودي يسأله عن معنى هاتين الكلمتين؟ وهل يصدف عن سؤال العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ويلجأ إلى رجل يهودي؟

وهل يسأل رجلًا يهودياً ليس له ذكر بين العلماء أم يسأل رجلًا عربياً معروفاً بالعلم ومعرفة باللسان العربي؟ وقد يكون اللجوء إلى أحبار أهل الكتاب الذين أسلموا متعلقاً ببعض نوادر القصص الإسرائيلي، ولكن أليس من الغريب أن توحي هذه الرواية بأن ترجمان القرآن كان يعد اليهود مرجعاً للغة العربية ومصدراً تؤخذ عنه؟

وبناء على هذا فإن الحق الذي لا مراء فيه هو أن هذه الروايات موضوعة على ابن عباس وقد انكشف زيفها وفسادها.

وأما عن اتهام جولد زيهر لابن عباس بالرجوع إلى كعب الأحبار لمعرفة معنى «أم الكتاب» و «المرجان»[٢]،

---

(١) الخطيب التبريزي، شرح القصائد العشر ص١٢٠ ـ ١٢٣.

(٢) جولد تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي ص٨٨.

فهناك رواية ذكرها الطبري في تفسيره[١] وفيها أن ابن عباس سأل كعباً عن معنى «أم الكتاب» الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٢]، وهذه الرواية لا بأس بسندها، ولكن الملاحظ أن الطبري ذكر أيضاً بجوار هذه الرواية الوحيدة عديداً من روايات تفسيرية أخرى منسوبة إلى ابن عباس في تفسير هذه الكلمة[٣]، ويظهر من هذا أن ابن عباس كان يعرف معنى «أم الكتاب»، إذن لم يكن الداعي إلى سؤاله كعباً عنها عدم معرفته بمعناها، بل يبدو أنه سأله عن رأيه الخاص فيها، ولقد كان لكعب فيها رأي خاص، فقد روي عن كعب أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا أمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأنبأتك ماهو كائن إلى يوم القيامة، قال: وما هي؟ قال: قول الله: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾[٤]، فهل المفهوم من هذه الرواية أن كعباً كان يحاول أن يوحي إلى عمر رضي الله عنه بأنه يعلم ما هو كائن إلى يوم القيامة؟ أم هل كان يرى أن أم

---

(١) الطبري، جامع البيان ١٣/١٧١.

(٢) سورة الرعد: ٣٩.

(٣) الطبري، جامع البيان ١٣/١٦٧، ١٦٩، ١٧١، ١٦/٤٧٧، ٢٥/٤٨.

(٤) المصدر السابق ١٣/١٦٨.

الكتاب هي الكتب الدينية القديمة التي كان يعرفها ـ وهو الحبر ـ ويزعم أنها تحتوي على خبر ما هو كائن إلى يوم القيامة؟ وعلى هذا فيبدو لي أن ابن عباس سأله عن ذلك ليعرف رأيه الخاص في هذه المسألة ويقف على معتقده وفكره، ولم يكن يسأله لأنه يجهل معنى هذه الكلمة في القرآن.

لقد كان أهل الكتاب يحكون للمسلمين إسرائيليات غاية في الغرابة، جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**الله أعلم**»، فقال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم[1]. هذه الغرائب كان المسلمون يتعجبون لها، وكان الصحابة يراجعون أهل الكتاب فيها، وموقف ابن عباس من سؤاله كعباً عن أم الكتاب يشبه موقف معاوية بن أبي سفيان من قول كعب عن ذي القرنين إنه كان يربط خيله بنجوم السماء، فقال له معاوية في صيغة استفهام إنكاري القصد منه التهكم والاستنكار: «أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك فإن الله تعالى قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[2].

---

(١) د. محمد محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون ص١٨٦.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١٨٦/٥ .وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ في سورة الكهف آية رقم ٨٤.

فلم يكن معاوية يسأله ليعلم ما يجهل، بل كان يسأله متهكماً منكراً، ومعاوية هو القائل عن كعب: «وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب»[1].

وأما كلمة «المرجان» التي وردت مرتين في سورة الرحمن[2]، فليس في التفاسير التي بين أيدينا أي رواية ـ ولو ضعيفة ـ تذكر أن ابن عباس سأل كعباً عن معناها، واتهام جولد زيهر لابن عباس هنا محض وهم أو افتراء.

وكذلك اتهام جولد زيهر لابن عباس بالأخذ عن عبدالله بن سلام اتهام باطل، لأنه لا توجد أي رواية أو أي خبر يفيد أخذ ابن عباس شيئاً عن عبدالله بن سلام.

وهكذا يثبت بالأدلة الواضحة أن المستشرقين جانبهم الصواب حين اتهموا بعض الصحابة بالأخذ عن أهل الكتاب، كذلك جانب الصواب من شايعهم على رأيهم، فلم تكن الإسرائيليات مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة ولم يعتمد عليها أحد منهم قط، وقصارى الأمر أن بعضهم استأنس ـ في مواضع نادرة جداً لا تكاد تجاوز عدد أصابع اليدين ـ ببعض القصص الإسرائيلي

---

(١) البخاري، صحيحه، كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء**»٩/١٣٦.

(٢) سورة الرحمن: ٢٢، ٥٨.

الذي لا يخالف العقيدة الإسلامية ولا يمسها بأدنى سوء، ولا يتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأنهم كانوا يراجعون أهل الكتاب فيروونه ويردون الفاسد من رواياتهم ويدحضونه.

ولو كان هؤلاء المستشرقون ـ ومن شايعهم وتعلق بأذيالهم ـ يقرؤون قليلًا لقرؤوا قول ابن عباس رضي الله عنه: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله؟ تقرؤونه لم يشب[1]، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلًا[2]، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسايلتهم[3]؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلًا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم»[4].

---

(١) لم يشب: لم يخلط بشيء غيره.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ سورة البقرة: ٧٩.

(٣) أي مسائلتهم.

(٤) البخاري، صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يُسئل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها ٢٣٧/٣ .وكتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: **«لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء» ١٣٦/٩.**

نعم، لو كانوا يقرؤون لقرأوا قول ابن مسعود رضي الله عنه: «لا تسألوا أهل الكتاب، فإنهم لن يهدوكم، وقد أضلوا أنفسهم، فتكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل»[١].

(١) ابن حجر، فتح الباري ١٣/ ٢٤٥.

الاتجاه

لقد سار تفسير الصحابة رضوان الله عليهم في اتجاهين متوازيين، أولهما التفسير اللغوي، والآخر التفسير الفقهي.

أولاً ـ التفسير اللغوي

لا شك أن الحاجة كانت ماسة إلى التفسير اللغوي في عهد الصحابة ـ وذلك لما قدمنا من أسباب في الفصل الأول ـ فلم يكن أهل البلاد المفتوحة يتكلمون العربية قبل الفتح، وحين اعتنقوا الإسلام وأقبلوا على العربية يتعلمونها وعلى القرآن يدرسونه ويتفهمونه ـ واجهتهم صعوبة في فهم كثير من ألفاظ القرآن الكريم وتعبيراته وصوره ودلالاته، وذلك لعدم معرفتهم العربية من جهة، ولكون القرآن يمثل قمة اللغة العربية فصاحة وبلاغة من جهة أخرى، لذا كانت الصعوبة مضاعفة.

كما أن أصحاب الفرق السياسية والمذهبية كانوا

يبحثون في القرآن الكريم عن نصوص تؤيد ما يرونه وما يذهبون إليه من أفكار ومبادىء، وتعضد ما يعتقدونه ويدعون إليه، وتدحض حجج خصومهم، لذلك كانوا يتأولون النصوص بما يخدم أغراضهم، وحسب هواهم ورأيهم، ودفعهم ذلك إلى التعسف في التأويل، وتحميل ألفاظ النص أكثر مما تحتمل، وقسر معانيها على ما يوافق دعواهم، لذا كان لا بد من تفسير لغوي صحيح لألفاظ القرآن الكريم ومعانيه ليعيد الأمور إلى نصابها، ويقاوم الهجوم العنيف للتأويل السياسي والمذهبي.

ولا شك أن القرآن الكريم يحتوي على بعض الألفاظ التي تحتاج إلى تفسير، لأنه نزل بلسان عربي مبين، واللغة العربية لغة واسعة عميقة، وتتميز بكثرة مفرداتها وتنوع دلالات ألفاظها، وتعد في ذلك أغزر اللغات مادة، وأغناها في أصول الكلمات التي تدل على معانٍ متعددةٍ ومتشعبةٍ، خاصة وقد أتيح لها من الظروف والعوامل ما وسع من طرائق استعمالها، وأساليب اشتقاقها، وتنوع لهجاتها، كما توفرت لها أسباب النماء والحياة والخلود لارتباطها بالقرآن الكريم كتاب الله الخالد على مر العصور، الباقي إلى يوم الدين، المحفوظ بالعناية الإلهية.

ولعل أبرز العوامل التي ساعدت على اتساع اللغة

العربية واشتمالها على ثروة ضخمة من الألفاظ أن علماء العربية حافظوا على المهجور في الاستعمال من ألفاظها، فسجلوه في المعاجم والقواميس، وفي كتب اللغة المختلفة، وبذلك كتبت له الحياة والبقاء بجانب المستعمل، فازدادت ثروة اللغة العربية من المفردات، وفاقت في ذلك لغات العالم.

والترادف في العربية والاشتراك اللفظي كثير جداً لدرجة أن مجد الدين الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط (ت٨١٧هـ) ألف كتاباً بعنوان «الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف»، وكان ابن خالويه(ت٣٧٠هـ) يحفظ للأسد خمسمائة اسم، وللحية مائتين[١]، وجمع المستشرق دوهامر (Dehammer) أكثر من خمسة آلاف وستمائة وأربعة وأربعين لفظاً خاصاً بشؤون الجمل، وهذا يبين مدى غزارة مفردات اللغة العربية وسعتها. كما نشير أيضاً إلى مسألة مهمة وهي أنه ليس في إمكان كل الناس أن يحيطوا بجميع مفردات اللغة العربية، ويكفي أن نعرف في ذلك أن معجم «العين» الذي ألفه الخليل بن أحمد (١٠٠ ـ ١٧٥هـ) والذي يعد أول محاولة للإحصاء الرياضي للألفاظ العربية قدم ملايين الألفاظ وذلك عن

(١) السيوطي، المزهر ١/٣٢٥.

طريق فكرة «التقليب»، إلا أنه لم يستوعب كل ألفاظ العربية، وألفت من بعده كتب تستدرك ذلك، ومنها كتاب لأبي فيد مؤرج السدوسي (ت١٩٥هـ)، وكتاب لنصر بن علي الجهضمي، وكتاب للنضِر بن شميل(ت٢٠٣هـ)، وكتاب «الاستدراك على الخليل» لأبي تراب (وهو تلميذ شمر بن حمدويه المتوفي سنة ٢٥٥هـ)، وكتاب «ما أغفله الخليل في كتاب العين» لأبي عبدالله محمد الكرماني النحوي (ت٣٢٩هـ). وكتاب «فائت العين» لأبي عمر الزاهد(ت٣٤٥هـ)، وكتاب «التكملة» لأحمد بن محمد البشتي الخارزنجي (ت٣٤٨هـ) الذي قصد فيه تكملة كتاب العين، وكتاب «الحصائل» لأبي الأزهر البخاري (معاصر الأزهري) سماه بذلك لأنه قصد تحصيل ما أغفله الخليل، وكتاب «الاستدراك لما أغفله الخليل» لمحمد بن جعفر الهمذاني... هذا بالإضافة إلى زيادات ابن دريد(ت٣٢١هـ) في الجمهرة، والأزهري (ت٣٧٠هـ) في تهذيب اللغة، وغيرهم.

وإنما فصلت القول بعض الشيء في هذه المسألة لأبين مدى حاجة دارس القرآن الكريم إلى التفسير اللغوي. وأهمية هذا اللون من التفسير وقيمته وأثره، لذا كان التفسير اللغوي من أوائل علوم القرآن والتفسير ظهوراً، وكان ذلك منذ عهد النبي ﷺ، فقد كان

المسلمون يسألونه صلوات الله وسلامه عليه عما يغرب عنهم من معاني بعض ألفاظ القرآن الكريم، ومن الأمثلة على ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال: سأل رجل رسول الله ﷺ، قال: أرأيت قول الله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠﴾[1]؟ قال: «**اليهود والنصارى**»، قال: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾[2]؟ قال: «**آمنوا ببعض وكفروا ببعض**»[3].

وقد تولى الصحابة رضوان الله عليهم مهمة التفسير بعد انتقال الرسول ﷺ إلى جوار ربه، وكان التفسير اللغوي يمثل اتجاهاً رئيساً لهم في العمل التفسيري، وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين وهو لسانهم ووردت عنهم في ذلك آثار عديدة، ومن ذلك ما روي عن ابن مسعود في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾[4]، فقال: «الأمة الذي يعلم الخير، والقانت: المطيع لله ولرسوله»[5]. وفي

---

(١) سورة الحجر: ٩٠.

(٢) سورة الحجر: ٩١.

(٣) السيوطي، الدر المنثور ١٠٦/٤ نقلًا عن الطبراني في الأوسط.

(٤) سورة النحل: ١٢٠.

(٥) الطبري، جامع البيان ١٢٨/١٤ ـ ١٢٩ .وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٥٣٠/٤، ٨٧/٧. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٩٧/١٠ ـ ١٩٨، ٢٣٩/١٥. والزمخشري، الكشاف ٣٤٨/٢. والحاكم، المستدرك ٣٥٨/٢ .وابن حجر، الكافي ص٩٧.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾[1]، قال: «الربيون: الألوف»[2]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[3]، قال: «الأواه: الدعاء»[4]، وفي قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾[5]، قال: «الرحيق: الخمر»[6]، وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾[7]، قال: «الحفدة: هم الأصهار»[8].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٦.

(٢) الطبري، جامع البيان ٢٦٦/٧ .وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١١١/٢ .والبغوي، معالم التنزيل ٢٦٢/١ .وابن الجوزي، زاد المسير ٤٧٢/١.

(٣) سورة التوبة: ١١٤.

(٤) الطبري، جامع البيان ٥٢٣/١٤ ـ ٥٢٤ .وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١٦٢/٤ .والبغوي، معالم التنزيل ١٢٧/٣، والسيوطي، الدر المنثور ٢٨٥/٣، وابن الجوزي، زاد المسير ٥٠٩/٢.

(٥) سورة المطففين ٢٥.

(٦) الطبري، جامع البيان ٦٧/٣٠ .وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣٧٤/٨، والسيوطي، الدر المنثور ٣٢٨/٦.

(٧) سورة النحل: ٥٢.

(٨) الطبري، جامع البيان ٩٧/١٤ .وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٤٤/١٠ .والبغوي، معالم التنزيل ٨٥/٤ .وانظر ابن الجوزي، زاد المسير ٤٦٩/٤.

﴿مُقِيتًا﴾[1]، قال عبدالله بن رواحة وقد سأله رجل عن تفسيرها: «يقيت كل إنسان على قدر عمله»[2].

الغريب:

ويعد ابن عباس أبرز الصحابة في تفسير الغريب، فقد برع في هذا اللون من التفسير، وبذل فيه جهداً كبيراً مشكوراً، وطوره، وكان له فيه محصول وفير، وهو الذي سماه «غريب القرآن»، جاء ذلك في قوله: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب»[3]. وهي تسمية علمية دقيقة، إذ لا توجد في القرآن أو في اللغة عموماً كلمات صعبة الفهم في حد ذاتها، لأن هذه الكلمات موجودة بالفعل في اللغة، ولها دلالاتها ومعانيها، ويمكن العثور عليها بالوقوف على مفهومها بالرجوع إلى المعاجم والقواميس وكتب اللغة والأدب ودواوين الشعر القديم، فهي إذن لا تستعصي على الفهم، والبحث عنها ليس بمستصعب، وكل ما في الأمر أن هذه الكلمات إما أن تكون مهجورة فلا يعلمها البعض بسبب عدم استعمالها في عصره أو في مجتمعه أو

(١) سورة النساء: ٨٥.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣٢٤/٢.
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٢٤/١.

في بيئته اللغوية، وإما أن تكون موجودة ولكنه لا يعلمها بسبب قلة ثقافته اللغوية، وضعف اطلاعه على التراث المعجمي واللغوي والأدبي، أو بسبب عدم استخدامه لها في قاموسه اللغوي الخاص الذي يتعامل بمفرداته في حياته اليومية وفي مجال عمله ودراسته، أو بسبب اقتصاره على معرفة واستخدام بعض ما تدل عليه من بين معانيها ودلالاتها الأخرى التي تعددت نتيجة تطورها التاريخي. وفي كل هذه الأحوال تكون الكلمة «غريبة» وليست بصعبة في حد ذاتها، وتكون غرابتها نسبية لأن ما لا يعلمه البعض عنها يعلمه البعض الآخر أو يستطيع التوصل إلى العلم به.

ولقد أثرت عن ابن عباس روايات وفيرة في التفسير اللغوي الذي يتعلق بالألفاظ الغريبة التي جاءت في القرآن الكريم، وينسب إليه أول لتأليف في غريب القرآن، وصلنا ذلك في صحيفته المنسوبة إليه في التفسير برواية علي بن أبي طلحة (ت١٤٣هـ)، وهو ثقة، روى له مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد(١).

---

(١) انظر: مسلم كتاب النكاح، باب حكم العزل ١٠/١٢ ـ ١٣ .وأبو داود، سننه، كتاب الفرائض، باب في ميراث ذوي الأرحام ١٢٢/٢ ، وابن ماجه، سننه، كتاب الفرائض، باب ذوي الأرحام ٩١٤/٢ ـ ٩١٥ حديث رقم ٢٧٣٨ وكتاب الديات، باب الدية على =

وقد اعتمد البخاري (ت٢٥٦هـ) على هذه الصحيفة في صحيحه، كما أخرج منها الطبري (ت٣١٠هـ)، وأبو حاتم الرازي (ت٢٧٧هـ) وابنه عبدالرحمن(ت٣٢٧هـ)، وابن المنذر(ت٢٧٧هـ)، وأبو جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ) في كتابيه «الناسخ والمنسوخ» و «القطع والائتناف»، والبلاذري (ت٢٧٩هـ) والآجري (ت٣٦٠هـ)، وأبو الشيخ الأصهباني (ت٣٦٩هـ)، وأبو القاسم السهمي (ت٤٢٧هـ)، والبيهقي (ت٤٥٨هـ)، والبغوي (ت٥١٦هـ).

وقد ذكر السيوطي في كتابه الإتقان طائفة مما أورده الطبري وابن أبي حاتم في تفسيريهما من هذه الصحيفة[١].

وقد أجمع الحفاظ على أن علي بن أبي طلحة لم يسمع هذا الكتاب من ابن عباس، وإنما رواه وجادة، أو ربما أخذه عن بعض تلاميذ ابن عباس الذين عاصرهم مثل مجاهد(ت١٠٣هـ)، وسعيد بن جبير(ت٩٥هـ) وعكرمة(ت١٠٥هـ)[٢]. ويقول فؤاد سزجين: «والمؤكد أن التفسير الذي رواه علي بن أبي طلحة منسوباً إلى ابن

= العاقلة فإن لم يكن عاقلة ففي بيت المال ٢/٨٧٩ ـ ٨٨٠ حديث رقم ٢٦٣٤ .وأحمد، المسند ١/٣٣٠.

(١) السيوطي، الإتقان ٢/٦ ـ ٥٧.

(٢) السيوطي، الإتقان ٤/٢٣٧ .وابن حجر، تهذيب التهذيب ٧/٣٣٩.

عباس هو من تأليف ابن عباس نفسه، وذلك لأن علي بن أبي طلحة قد جرح لروايته هذا التفسير دون أن يكون قد أخذه سماعاً عن ابن عباس»[1]، وأرى أنه إذا كان البخاري قد علق ما رواه عن ابن عباس في الغريب ولم يصرح باسم علي بن أبي طلحة فإنما ذلك يرجع إلى سبب سياسي يتعلق برأي علي بن أبي طلحة في موقف العباسيين من فلول بني أمية بعدما غلبوا عليهم. والمهم أن علي بن أبي طلحة ثقة في روايته هذا الكتاب عن ابن عباس[2]، وكذلك كانت الواسطة بين علي بن أبي طلحة وابن عباس ثقة كما يقول ابن حجر[3].

ولا يقتصر وجود الروايات المنسوبة لابن عباس في غريب القرآن على نسخة علي بن أبي طلحة فقط، فقد كان لابن عباس تلاميذ عديدون رووا عنه تفسيره، وفيما رووه عنه الكثير من تفسير الغريب، ومن جيد هذه الطرق: طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين، وكثيراً ما يخرج منها الحاكم في مستدركه،

(١) فؤاد سزجين، تاريخ التراث العربي م١ ج١ ص٦٦.
(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٧/٣٤٠ ـ ٣٤١.
(٣) السيوطي، الإتقان ٤/٢٣٧.

والفريابي. كذا طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد ـ مولى آل زيد بن ثابت ـ عن عكرمة أو سعيد بن جبير (هكذا بالترديد)، وقد أخرج منها الطبري وابن أبي حاتم كثيراً في تفسيريهما، والطبراني في معجمه الكبير[1].

ولقد كان ابن عباس من أرق الصحابة المفسرين تناولًا للفظة القرآنية، إذ كان يعمد إلى المعنى المباشر، ويسهم إليه بلطف وحذق، ويصيبه من أقصر طريق، ويعبر عنه بلفظ واحد مرادف أو يعبر عن معناه الخاص بالسياق الذي ينتظم فيه بما اختاره من ضمن دلالاته المتعددة، ودل بذلك على علمه الواسع باللغة وفهمه العميق لمعانيها، وموهبته الفذة في التماس الفروق الدقيقة بين الكلمات التي يظن فيها اتحاد المعنى، وبين معاني الأحداث التي تفيدها الأفعال، والوقوف على ما يدق من تباين بين اسم الذات واسم الصفة أو صفة الصفة.

ومن أمثلة هذه التفسيرات اللغوية لابن عباس: في قوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾[2]، قال: «يتمادون»[3]، وقوله

---

(١) المصدر السابق ٢٣٩/٤.

(٢) سورة البقرة: ١٥.

(٣) السيوطي، الإتقان، ٦/٢.

تعالى: ﴿أَمَانِيَّ﴾[1]، قال: «أحاديث»[2]، وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ﴾[3]، قال: «نبدل»[4]، وقوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾[5]، قال: «نتركها فلا نبدلها»[6]، وقوله تعالى: ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[7]، قال: «عمله»[8]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[9]، قال: «مالًا»[10]، وقوله تعالى: ﴿جَنَفًا﴾[11]، قال: «إثماً»[12]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ﴾[13]، قال: «أحرم»[14]، وقوله تعالى: ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾[15]، قال: «إثماً عظيماً»[16]، وقوله تعالى:

---

(١) سورة البقرة: ٧٨.
(٢) السيوطي، الإتقان، ٦/٢.
(٣) سورة البقرة: ١٠٦.
(٤) السيوطي، الإتقان، ٧/٢.
(٥) سورة البقرة: ١٠٦.
(٦) السيوطي، الإتقان، ٧/٢.
(٧) سورة البقرة: ٢٠٨.
(٨) السيوطي، الإتقان، ٧/٢.
(٩) سورة البقرة: ١٨٠.
(١٠) السيوطي، الإتقان، ٧/٢.
(١١) سورة البقرة: ١٨٢.
(١٢) السيوطي، الإتقان، ٧/٢.
(١٣) سورة البقرة: ١٩٧.
(١٤) السيوطي، الإتقان، ٧/٢.
(١٥) سورة النساء: ٢.
(١٦) السيوطي، الإتقان، ٨/٢.

﴿نِحۡلَةٗ﴾[1]، قال: «مهراً»[2]، وقوله تعالى: ﴿طَوۡلًا﴾[3]، قال: «سعة»[4].

وقد فتحت جهود ابن عباس في تفسير الغريب آفاقاً واسعةً جديدةً في دراسة العربية لغتها وبلاغتها، وتطور دلالاتها، حتى إن بعض الباحثين المعاصرين يرى أن هذه الجهود تعد «أول دراسة في علم المفردات عند المسلمين»[5].

كما أنها أذكت الحس الفني في تذوق الكلمة القرآنية، ووجهت الأنظار إلى «مجاز القرآن»، ولقد كان القدماء يرادفون بين غريب القرآن ومعاني القرآن ومجاز القرآن ويظهر ذلك واضحاً فيما فسره ابن عباس من الغريب، فقد فسر خطوات الشيطان[6] بأنها عمله[7]،

---

(١) سورة النساء: ٤.

(٢) السيوطي، الإتقان، ٨/٢.

(٣) سورة النساء: ٢٥.

(٤) السيوطي، الإتقان، ٩/٢.

(٥) فؤاد سزجين، تاريخ التراث العربي م١ ج١ ص٦٤.

(٦) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيۡطَانِۚ﴾. سورة البقرة: ٢٠٨.

(٧) السيوطي، الإتقان، ٧/٢.

وفسر مثل نور الله[1] بأنه هداه في قلب المؤمن[2]، وفسر الباقيات الصالحات[3] بأنها ذكر الله[4]، وفسر الفتح[5]، بأنه المدد[6]. وفسر الغرور[7] بأنه الشيطان[8]، والأمانة[9] بالفرائض[10] والحمد[11] بالأمر[12]، واليأس[13] ....

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سورة النور: ٢٥.

(٢) السيوطي، الإتقان، ٢/٣٢.

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ سورة الكهف: ٤٦.

(٤) السيوطي، الإتقان، ٢/٢٥.

(٥) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ سورة الأنفال: ١٩.

(٦) السيوطي، الإتقان، ٢/١٧.

(٧) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ سورة لقمان: ٣٣.

(٨) السيوطي، الإتقان، ٢/٣٧.

(٩) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ سورة الأحزاب: ٧٢.

(١٠) السيوطي، الإتقان، ٢/٣٧.

(١١) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ سورة الإسراء: ٤٤.

(١٢) السيوطي، الإتقان، ٢/٢٤.

(١٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ سورة الرعد: ٣١.

بالعلم[1]، والفتاح[2] بالقاضي[3]، والدعاء إلى الله[4] بتوحيده[5]... وغير ذلك.

لغة القبائل:

وفي مجال التفسير اللغوي كان للصحابة اهتمام كبير بلغات القبائل العربية الأخرى، ويعد ابن عباس فارس هذا الميدان، فلقد أثرت عنه روايات عديدة تبين معاني الكلمات التي جاءت في القرآن الكريم من لغات القبائل العربية غير لغة الحجاز أو لغة قريش، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾[6]، قال: «الغناء، وهي يمانية»[7] وفي قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾[8] قال: «رباً بلغة أهل اليمن»[9]، وفي قوله تعالى:

---

(١) السيوطي، الإتقان، ٢/٢٢.

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ سورة سبأ: ٢٦.

(٣) السيوطي، الإتقان، ٢/٣٨.

(٤) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ سورة غافر: ٦٠.

(٥) السيوطي، الإتقان، ٢/٤١.

(٦) سورة النجم: ٦١.

(٧) السيوطي، الإتقان، ٢/١٠٦.

(٨) سورة الصافات: ١٢٥.

(٩) السيوطي، الإتقان، ٢/١٠٧.

﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾[1]، قال: «مكتوباً، وهي لغة حميرية، يسمون الكتاب أسطوراً»[2]، وفي مسائل نافع بن الأزرق قال ابن عباس في معنى قوله تعالى: ﴿يَفْتِنَكُمُ﴾[3] «يضلكم»[3]، «بلغة هوازن»[4]، وفي قوله تعالى: ﴿بُورًا﴾[5]، قال: «هلكى، بلغة عمان»[6]، وفي قوله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ﴾[7]، قال: «هربوا، بلغة اليمن»[8]، وفي قوله تعالى: ﴿لَا يَلِتْكُم﴾[9]، قال: «لا ينقصكم، بلغة بني عبس»[10]، وفي قوله تعالى: ﴿مُرَٰغَمًا﴾[11]، قال: «منفسحاً، بلغة هذيل»[12].

(١) سورة الإسراء: ٥٨.
(٢) السيوطي، الإتقان، ٢/١٠٨.
(٣) سورة النساء: ١٠١.
(٤) السيوطي، الإتقان، ٢/١٠٧.
(٥) سورة الفرقان: ١٨.
(٦) السيوطي، الإتقان، ٢/١٠٨.
(٧) سورة ق: ٣٦.
(٨) السيوطي، الإتقان، ٢/١٠٨.
(٩) سورة الحجرات: ١٤.
(١٠) السيوطي، الإتقان، ٢/١٠٨.
(١١) سورة النساء: ١٠٠.
(١٢) السيوطي، الإتقان، ٢/١٠٨.

المعرب:

وفي مجال التفسير اللغوي كان لا بد من التعرض للكلمات المعربة التي كانت قد دخلت اللغة العربية وانصهرت في بوتقتها بسبب عوامل عديدة ليس هنا مجال بحثها. ولقد كان من الصحابة المفسرين من هم على معرفة بهذه اللغات، ومنهم أبو موسى الأشعري، فقد روي عنه أنه فسر معنى قوله تعالى: ﴿كِفْلَيْنِ﴾[1]، فقال: «ضعفين، بالحبشية»[2]. ومنهم ابن مسعود الذي فسر معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾[3]، فقال: «قيام الليل، بالحبشية»[4].

ولقد كان بعض الصحابة على علم ببعض اللغات المجاورة التي كانت في عصرهم، مثل السريانية التي تذكر الروايات أن زيد بن ثابت رضي الله عنه تعلمها بناء على أمر النبي ﷺ. وكذلك كان عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يعرف هذه اللغة.

وكما كان ابن عباس رضي الله عنهما فارس التفسير

---

(١) سورة الحديد: ٢٨.

(٢) السيوطي، الإتقان، ٢/١٣٨، والمهذب ص٨٣.

(٣) سورة المزمل: ٦.

(٤) السيوطي، الإتقان، ٢/١٤٠، والمهذب ص٩١.

اللغوي في ميدان معرفة لغات القبائل العربية الأخرى التي وردت كلمات منها في القرآن الكريم ـ كذلك كان فارس ميدان المعرب، فقد كان يعرف معاني الكثير من الألفاظ المعربة التي جاءت في القرآن الكريم، ووردت عنه في ذلك روايات تفسيرية عديدة، ومنها تفسيره لمعنى قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ﴾[1]، قال: «الجبت: اسم الشيطان، بالحبشية»[2]، وفي قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[3]، قال: «حطب جهنم، بالزنجية»[4]، وفي قوله تعالى: ﴿حُوبًا﴾[5]، قال: «إثماً، بلغة الحبشة»[6]، وفي قوله تعالى: ﴿رَٰعِنَا﴾[7]، قال: «سب، بلسان اليهود»[8]، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾[9]، قال: «السجل بلغة الحبشة: الرجل»[10]، وفي قوله تعالى:

---

(١) سورة النساء: ٥١.
(٢) السيوطي، الإتقان، ١٣٢/٢، والمهذب ص٤٠.
(٣) سورة الأنبياء: ٩٨.
(٤) السيوطي، الإتقان، ١٣٢/٢، والمهذب ص٤٢.
(٥) سورة النساء: ٤.
(٦) السيوطي، الإتقان، ١٣٢/٢، والمهذب ص٤٤.
(٧) سورة البقرة: ١٠٤.
(٨) السيوطي، الإتقان، ١٣٢/٢، والمهذب ص٤٨.
(٩) سورة الأنبياء: ١٠٤.
(١٠) السيوطي، الإتقان، ١٣٣/٢، والمهذب ص٥٤.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾[1]، قال: «بالنبطية: القراء»[2]، وفي قوله تعالى: ﴿سَكَرًا﴾[3]، قال: «السكر بلسان الحبشة: الخل»[4]، وفي قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾[5]، قال: «هي نبطية، فشققهن»[6]، وفي قوله تعالى: ﴿قَسْوَرَةٍ﴾[7]، قال: «الأسد، يقال له بالحبشية: قسورة»[8]، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾[9]، قال: «ممتلئة به، بلسان الحبشة»[10]. وفي قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[11]، قال: «هلم لك، بالقبطية»[12]، وفي قوله تعالى: ﴿سِجِّيلٍ﴾[13]، قال: «هي بالفارسية، «سنك»، وكل حجر وطين»[14].

---

(١) سورة عبس: ١٥.
(٢) السيوطي، الإتقان، ٢/١٣٤، والمهذب ص٥٨.
(٣) سورة النحل: ٦٧.
(٤) السيوطي، الإتقان، ٢/١٣٤، والمهذب ص٥٩.
(٥) سورة البقرة: ٢٦٠.
(٦) السيوطي، الإتقان، ٢/١٣٥، والمهذب ص٦٤.
(٧) سورة المدثر: ٥١.
(٨) السيوطي، الإتقان، ٢/١٣٧، والمهذب ص٧٨.
(٩) سورة المزمل: ٨.
(١٠) السيوطي، الإتقان، ٢/١٤٠.
(١١) سورة يوسف: ٢٢.
(١٢) السيوطي، الإتقان، ٢/١٤٠.
(١٣) سورة هود: ٨٢ .وسورة الحجر: ٧٤، وسورة الفيل: ٤.
(١٤) السيوطي، المهذب ص٥٥.

وقد نسب أول كتاب في لغات القرآن إلى ابن عباس، ووصلنا عنه هذا الكتاب برواية عبدالله بن الحسين بن حسنون المقري (٢٩٥ ـ ٣٨٦هـ). وقد نشره د. صلاح الدين المنجد، وهو كتاب يفسر معاني الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم، من لغات القبائل ومن المعرب، مثل لغة هذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر وحبيش والنبطية وجرهم وقيس عيلان والحبشة والسريانية وبربر واليمن.

الوجوه والنظائر:

هي ما اتفق لفظه واختلف معناه، أي أن اللفظ الواحد يرد في عدة مواضع من القرآن الكريم، ولكن له في كل موضع منها معنى مختلف، وإذا كان وجه الكلام هو السبيل المقصودة إليها به، فإن وجوه الكلام تعني سبل معانٍ متعددةٍ للفظ الواحد. وأما النظائر فهي ترددات اللفظ الواحد في مواضع مختلفة.

وعلم الوجوه والنظائر من أقدم علوم القرآن المتعلقة بالتفسير اللغوي ظهوراً، ويرجع الفضل في ذلك إلى ابن عباس، فقد أثرت عنه روايات تفسيرية عديدة خاصة بالوجوه والنظائر، وقد ذكر ابن الجوزي في مقدمة كتابه «نزهة الأعين والنواظر في علم الوجوه والنظائر» أنه

قد نسب لابن عباس كتاب في الوجوه والنظائر بروايتين إحداهما رواية عكرمة عن ابن عباس، والأخرى رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وقد كان لجهود ابن عباس في دراسة الوجوه والنظائر في القرآن الكريم أثر كبير في لفت أنظار الباحثين إلى هذا المجال في الدراسات اللغوية القرآنية، فتوالت من بعده التصانيف في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، وكذلك كانت جهود ابن عباس في ذلك أساساً لكتب الأشباه والنظائر التي ظهرت في بعض العلوم الأخرى مثل اللغة والأدب والنحو والفقه، ففي اللغة ألف ابن سلام البغدادي (ت٢٢٤هـ) «كتاب الأجناس وما تشابه من كلام العرب وما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى»، وفي الأدب ظهر كتاب «الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين» للخالديين، وفي النحو، ألف السيوطي (ت٩١١هـ) كتاب «الأشباه والنظائر»، وفي الفقه ظهر كتاب «الأشباه والنظائر» لتاج الدين السبكي، وكتاب «الأشباه والنظائر» للإمام صدر الدين ابن الوكيل. وغير ذلك.

الاستعانة بالشعر في التفسير اللغوي:

وللتوصل إلى معرفة غريب القرآن كان لا بد من

الاستعانة بالشعر في تفسير الغريب، وذلك لأن الشعر يمثل أرقى مراحل النضوج الفني والمعجمي والأسلوبي الذي وصلت إليه اللغة العربية قبل نزول القرآن الكريم، ولذلك كان المفسرون من الصحابة والتابعين يرجعون دوماً في تفسيرهم اللغوي للغريب من ألفاظ القرآن إلى الشعر العربي القديم، وفي ذلك يقول أبو بكر بن الأنباري: «قد جاء عن الصحابة والتابعين كثيراً الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر»[1]. ولعل مما يعزز ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾[2]، فسأل عن معنى «التخوف»، فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا: التنقص، ثم أنشد الرجل الهذلي بيتاً من الشعر القديم يبين هذا المعنى، فقال:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تَامِكاً قَرِداً

كما تخوف عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ[3]

(١) السيوطي، الإتقان، ٢/٦٧، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١/٢٤.

(٢) سورة النحل: ٤٧.

(٣) البيت في اللسان لابن مقبل (انظر: مادة «خوف»)، أو لذي الرمة (انظر: مادة «سفن»)، أو لأبي كبير الهذلي (انظر: =

فوصف الشاعر هنا ناقة تنقص السفر من سنامها بعدما كان مكتنزاً. فقال عمر بن الخطاب: «يا أيها الناس، عليكم بديوانكم، شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم»[1].

ويعد ابن عباس رائداً من رواد استخدام الشعر العربي في تفسير القرآن الكريم، أو هو المؤسس الأول لهذه المدرسة، فلقد أكثر من الاحتجاج بالشعر في التفسير اللغوي، ونادى بالرجوع إلى الشعر في معرفة غريب القرآن ومعانيه، وحث عليه، ومن أقواله في ذلك: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن

= القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١١٠/١٠ .والتامك: المرتفع، يقال: تمك يتمك تمكاً أي طال وارتفع، والشاعر يصف سنامها أنه مرتفع كبير. والقرد: الذي تجعد شعره أو وبره بسبب تراكم شحمه من شدة السِّمَنِ. والنبعة: النبع من شجر الجبال تتخذ من القسى، واحده نبعة. والسفن: الفأس أو الحديدة التي تستخدم في النحت أو البرد أو النجارة. يقول الشاعر: إن كثرة السفر والترحل تنقص من سنام الناقة الذي كان مكتنزاً حتى صار مثل القوس المتخذ من شجر النبع وكان في شجرته عوداً سميكاً فما زالت الفأس تنحته وتبرده حتى صار رفيعاً. والتخوف بمعنى التنقص لغة أزد شنوءة.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١١٠/١٠ ـ ١١١. وانظر: السيوطي، المزهر ٤٧٠/٢.

الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه»[1]، وقال أيضاً: «إذا خفي علكيم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب»[2]، وقال: «إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربي»[3]، وقال: «إذا قرأ أحدكم شيئاً من القرآن فلم يدر ما تفسيره، فليلتمسه في الشعر، فإنه ديوان العرب»[4]، وقال: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب»[5].

هذه النصوص تؤكد أصالة منهج الاستشهاد بالشعر في التفسير عند ابن عباس، ويقول علي بن زيد بن جدعان: سمعت سعيد بن جبير. ويوسف بن مهران يقولان: سمعنا ابن عباس يسئل عن الشيء بالقرآن، فيقول هكذا وهكذا، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا»[6]. وإذاً لم يكن استشهاد ابن عباس بالشعر في التفسير مجرد أسطورة مدرسية تحكى عنه كما زعم المستشرق جولد تسيهر[7].

---

(١) السيوطي، الإتقان، ٦٧/٢.
(٢) الحاكم، المستدرك ٤٩٩/٢.
(٣) الطبري، جامع البيان ٢٠٦/١٧.
(٤) البيهقي، شعب الإيمان ١٦٨٢/٢٥٨/٢.
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٢٤/١.
(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٢٤/١.
(٧) جولد تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي ص٩٠.

وقد تابعه بعض الباحثين في الشك في صحة نسبة الاستشهاد بالشعر إلى ابن عباس، فذهب إلى أن هذه الاستشهادات من وضع اللغويين في القرن الثالث الهجري أو أول القرن الرابع[1]، ولكن هذا الزعم مردود أيضاً بما ثبت في مستدرك الحاكم وغيره من الكتب المسندة الموثوق بها من أن ابن عباس استشهد بالشعر في تفسيره اللغوي بل توسع في ذلك، كما أن اعتماد الباحث الشاك على رواية الكلبي وحدها لتفسير ابن عباس ورفعه لها وحدها على سائر الروايات جعله يضطرب في إصدار الأحكام على أسلوب ابن عباس في تفسيره، خاصة وأن الكلبي شخصية مرفوضة وصمها التاريخ الإسلامي بالضعف والكذب.

ولقد كان ابن عباس على علم واسع بالشعر العربي، وكان ذواقة، وكان للشعر حظ وافر من مجالسه، وفي ذلكَ يقول عطاء: «ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس، أكثر علماً وأعظم خشيةً، وإن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم في واد واسع»[2]، وقال عمرو بن دينار:

---

(١) د. إبراهيم النجار، تفسير تنوير المقباس ص٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٢) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة ٩٢/٤ .ترجمة عبد الله ابن عباس رقم ٤٧٧٢.

«ما رأيت مجلساً قط أجمع لك خير من مجلس ابن عباس للحلال والحرام[1]، وتفسير القرآن، والعربية والشعر، والطعام[2]»[3].

كان ابن عباس يعرف أخبار الشعراء وأنسابهم، وكانت له حافظة قوية وذاكرة واعية، ولا يكاد يسمع شيئاً حتى يحفظه، ولقد روي في ذلك أن ابن عباس كان يوماً في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق أحد زعماء الخوارج.

إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة، فاستنشده ابن عباس، فألقى عمر بن أبي ربيعة رائيته الشهيرة:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر

غداة غد أم رائح فمهجر

فلما أتى على آخرها، غضب نافع وقال لابن عباس: «الله يا ابن عباس! إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصي البلاد، نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام مترف من مترفي قريش فينشدك:

---

(١) يقصد: للفقه.

(٢) يقصد أنه كريم جواد يطعم الناس.

(٣) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء ٦٢٦/١.

رأت رجلًا أما إذا الشمس عارضت
فيخزي وأما بالعشي فيخسر

فقال ابن عباس: ليس هكذا، قال: فكيف؟ قال:

رأت رجلًا أما إذا الشمس عارضت
فيضحي وأما بالعشي فيخصر

فقال نافع: ما أراك إلا وقد حفظت البيت! فقال ابن عباس: أجل، وإن شئت أنشدك القصيدة. وتذكر الرواية أن ابن عباس أنشد القصيدة كلها، فلم يخطىء فيها حرفاً. وقال بعضهم مبالغاً إنه أنشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة ولم يخطىء في شيء منها، ولم يكن ابن عباس قد سمعها إلا مرة واحدة[1].

والمهم في هذه الرواية أن ابن عباس كان ذا حافظة لاقطة قوية، ويقول ابن عباس عن نفسه: «ما سمعت شيئاً قط إلا رويته، وإني لأسمع صوت النائحة فأسد أذني كراهة أن أحفظ ما تقول»[2].

وهذه الحافظة القوية مكنته من الإحاطة بالشعر العربي القديم إحاطة واسعة دقيقة، وبالتالي كان تمثله

(١) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني ١/ ٧٢ ـ ٧٣.
(٢) المصدر السابق ١/ ٧٣.

بالشعر العربي في التفسير من أدواته التفسيرية المميزة التي برع في استخدامها، واشتهر بها، وحذا حذوه المفسرون من بعده.

ولقد أثرت عن ابن عباس روايات تفسيرية عديدة اعتمد فيها على الشعر العربي، وقد حفلت بها كتب التفسير وغيرها، ومن أشهرها ما عرف بمسائل نافع بن الأزرق، وهو زعيم فرقة من الخوارج اتبعت مذهبه ونسبت إليه فقيل لها الأزارقة، وقد وفد نافع على ابن عباس، والتقى به في فناء الكعبة، وسأله عن معنى عدد كبير من الكلمات القرآنية بلغ نحو المائتين تقريباً، وطلب منه أن يأتيه على معنى كل كلمة فيها بشاهد من الشعر العربي يدل على أن العرب كانت تعرف هذه الكلمات قبل نزول القرآن، فأجابه ابن عباس بتفسيرها مستشهداً على ما يقول بشواهد من الشعر العربي الجاهلي والإسلامي.

وقد احتفظت المصادر القديمة بهذه المسائل، وتوجد قطع منها في تفسير الطبري، وتفسير الدر المنثور للسيوطي، وفضائل القرآن لأبي عبيد، والمستدرك للحاكم، والمعجم الكبير للطبراني، وكتاب إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر ابن الأنباري، والكامل للمبرد، والإتقان للسيوطي، وغيرها.

وقد قام الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي بطبع هذه

المسائل في كتابه «معجم غريب القرآن» الذي صدر عام ١٩٥٠م عن دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.

ثم قام الدكتور إبراهيم السامرائي بتحقيق هذه المسائل، وأصدرها في كتاب بعنوان «سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبدالله بن عباس»، وقد صدر هذا الكتاب في بغداد سنة ١٩٦٩م، وبلغ مجموع السؤالات فيه حوالي مائتين وخمسين سؤالاً، وكذلك قامت الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء) بجمعها وتحقيقها وألحقتها بكتابها «الإعجاز البياني للقرآن الكريم» الذي صدر عن دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧١م. ضمن سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية رقم ٦٣.

والشواهد الشعرية التي احتج بها ابن عباس في تفسير الكلمات القرآنية في هذه المسائل هي من الشعر الجاهلي والإسلامي بصفة عامة، فهناك شواهد منسوبة إلى الأعشى وأوس بن حجر والنابغة الذبياني وامرىء القيس وزهير بن أبي سلمى، وهم من الشعراء الجاهليين، كما توجد شواهد منسوبة إلى شعراء إسلاميين منهم حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن زهير وعمر بن أبي ربيعة. وهناك مجموعة من الشواهد لم تصرح بعض المصادر بنسبتها إلى أصحابها ولعل ذلك سببه شهرتها وذيوعها إلى الدرجة التي لا يضر معها عدم نسبتها.

ومن أمثلة استشهاد ابن عباس بالشعر في التفسير تفسيره لقوله تعالى: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾[1]، قال: «القط: الجزاء» واستشهد بقول الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته

بنعمته يعطي القطوط ويطلق[2]

وتفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾[3]، قال: «النقع: ما يسطع من حوافر الخيل»، واستشهد بقول حسان بن ثابت:

عدمنا خيلنا إن لم لم تروها

تثير النقع موعدها كداء[4]

وتفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[5]، قال: «النقير: ما في شق النواة، ومنه تنبت النخلة»، واستشهد بقول لبيد بن ربيعة:

---

(١) سورة ص: ١٦.

(٢) السيوطي، الإتقان، ٧٦/٢، وانظر البيت في ديوان الأعشى ص٢١٩.

(٣) سورة العاديات: ٤.

(٤) السيوطي، الإتقان، ٨٨/٢، وانظر البيت في ديوان حسان ص٤.

(٥) سورة النساء: ١٢٤.

وليس الناس بعدك في نقير

وليسوا غير أصداء وهام[1]

وتفسيره لقوله تعالى: ﴿مُّقْمَحُونَ﴾[2]، قال: «المقمح: الشامخ بأنفه، المنكس رأسه»، واستشهد بقول بشر بن أبي خازم:

ونحن على جوانبها قعود

نغض الطرف كالإبل القماح[3]

وتفسيره لقوله تعالى: ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾[4]، قال: «أغنى من الفقر، وأقنى من الغنى فقنع به»، واستشهد بقول عنترة بن شداد:

فاقنى حياءك لا أبالك واعلمي

أني امرؤ سأموت إن لم أقتل[5]

---

(١) السيوطي، الإتقان، ٢/٩٢، وانظر البيت في ديوان لبيد ص٢٠٩.

(٢) سورة يس: ٨.

(٣) السيوطي، الإتقان، ٢/٩٥، وانظر البيت في ديوان بشر بن أبي خازم ص٤٨ .ولسان العرب (قمح).

(٤) سورة النجم: ٤٨.

(٥) السيوطي، الإتقان، ٢/١٠٠، وانظر البيت في ديوان عنترة ص٤٢ .من مجموعة العقد الثمين.

ثانياً ـ التفسير الفقهي

لقد كان من الطبعي أن تكون المشكلات الفقهية من أهم ما يواجه الصحابة نتيجة الفتوح ودخول أهل البلاد المفتوحة في الإسلام، واختلاف ظروف الحياة المعيشية عما كانت عليه في عهد النبي ﷺ، وظهور قضايا فقهية جديدة، لذلك جد الصحابة في حل المشكلات الفقهية وكان عمدتهم الأول في ذلك هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، لذلك كان التفسير الفقهي يمثل أهم اتجاهات التفسير عندهم، ولقد كان عدد الذين حفظت عنهم الفتوى من الصحابة مائة ونيفاً وثلاثين صحابياً[(١)]، وقد تركوا تراثاً ضخماً من الجهد الفقهي حتى لقد قال ابن حزم إنه «يمكن أن نجمع من فتوى كل واحد منهم سفراً ضخماً»[(٢)].

ولقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب ابن أمير المؤمنين المأمون فتيا عبدالله بن عباس في عشرين كتاباً[(٣)].

وفي العصر الحديث تم جمع موسوعات فقهية لكل

(١) ابن القيم، أعلام الموقعين ١/١٢.

(٢) المصدر السابق نفسه ١/١٢.

(٣) المصدر السابق نفسه ١/١٢.

من أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس والسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم جميعاً.

وهذه الجهود الفقهية الضخمة تمثل بداية التفسير الفقهي الذي نما وازدهر بعد ذلك، وألفت فيه تفاسير عديدة تحت عنوان «أحكام القرآن».

ولقد تميز التفسير الفقهي للصحابة بكونه تفسيراً تشريعياً عملياً واقعياً، وذلك لمواجهة المشكلات والأقضية الفقهية الجديدة، وإيجاد الحل العملي لها.

ومن أمثلة التفسير الفقهي عند الصحابة: موقفهم من قسمة أرض الفتوح في عهد عمر بن الخطاب، وهي قضية جديدة طرأت بعد الفتوح، وقد طلب الصحابة الفاتحون من عمر أن يقسم الأرض المغنومة خمسة أخماس، يعطيهم منها أربعة أخماس، ويأخذ الخمس الباقي لبيت المال ينفق منه على من بينهم الله، وذلك وفقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال: ٤١.

ولكن عمر رفض هذا الرأي، ورأى أن يحبس الأرض بعلوجها[1] أي على أهلها، ويضع عليهم فيها الخراج[2]، وفي رقابهم الجزية[3] يؤدونها، فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة، والذرية، ولمن يأتي بعدهم، وذلك من أجل تأمين المال الكافي اللازم للإنفاق على جند الثغور والمدن، وبذا يمكن حماية البلاد المفتوحة من كيد الكفار الذين كانوا بها ويتربصون الدوائر بالمسلمين كي ينقضوا عليهم مرة أخرى.

واستند عمر رضي الله عنه في رأيه هذا إلى تفسيره لآيات من القرآن الكريم، فقال: «إني وجدت حجة في كتاب الله: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾[4]. حتى فرغ

(١) العلوج: هم القائمون على فلاحة الأرض.

(٢) الخراج: هو ضريبة مالية على الأرض الصالحة للزراعة تؤخذ من أصحابها غير المسلمين، وذلك في مقابل العشر الذي يؤخذ مما تخرجه الأرض الزراعية التي يملكها المسلمون.

(٣) الجزية: ضريبة مالية تؤخذ من القادرين من غير المسلمين، وتتفاوت حسب مقدرتهم، وهي مقابل الزكاة التي تؤخذ من القادرين من المسلمين.

(٤) سورة الحشر: ٦.

من بني النضير، فهذه عامة في القرى كلها. ثم قال الله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾(١).

ثم قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾(٢). ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾(٣). فهذا فيما بلغنا - والله أعلم - في الأنصار خاصة. ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾(٤).

---

(١) سورة الحشر: ٧.

(٢) سورة الحشر: ٨.

(٣) سورة الحشر: ٩.

(٤) سورة الحشر: ١٠.

فكانت هذه عامة لمن جاء من بعدهم.

فقد صار الفيء بين هؤلاء جميعاً[1]، فكيف نقسمه لهؤلاء[2]، وندع من تخلف بعدهم بغير قسم»[3]. وقال عمر أيضاً: «لو قسمتها بينهم لصارت دولة بين الأغنياء منكم، ولم يكن لمن جاء بعدهم من المسلمين شيء، وقد جعل الله لهم فيها الحق بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾[4].

وقد وافق عمر جمهور الصحابة ومنهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبدالله بن عمر وطلحة بن عبيدالله، ولم يخالفه إلا نفر يسير منهم بلال بن رباح، وسلمان، وأبو هريرة، ولكنهم بعد ذلك رجعوا إلى رأيه.

وهكذا جاء التفسير الفقهي لعمر بن الخطاب كاشفاً للغمة ومقدماً للحل الأمثل لهذه المشكلة، ذلك الحل الذي يحقق مصلحة المسلمين بصفة عامة، ويضمن

---

(١) يقصد الطوائف الذين ذكروا في الآية السابقة من سورة الحشر، والمهاجرين الذين ذكروا في الآية الثامنة منها، والأنصار الذين ذكروا في الآية التاسعة منها أيضاً وكذلك من جاء بعدهم.

(٢) يقصد الفاتحين.

(٣) أبو يوسف، كتاب الخراج ص٣٧.

(٤) الجصاص، أحكام القرآن ٣/ ٤٣٠.

للدولة المورد المالي الذي يمكنها من بناء وتنمية قدراتها الدفاعية والإنشائية والاجتماعية، وتمنح أهل البلاد المفتوحة الأمن والشعور بعدالة الإسلام.

ويلاحظ هنا أن عمر بن الخطاب لم يعطل النص الذي احتج به مخالفوه، وإنما عمل بنصوص أخر أعطته الصلاحية في الخيار، وهو هنا خيار مصلحة يخص كل الأمة الإسلامية، كما أن الخلاف بينه وبين معارضيه كان مرجعه خلافاً تفسيرياً.

ومن أمثلة التفسير الفقهي عن الصحابة: ما رآه عمر بن الخطاب من أن للمطلقة طلاقاً بائناً النفقة والسكنى، وذلك لقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾[1]. فإن النهي عن إخراجهن يدل على وجوب النفقة والسكنى، ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾[2].

وخالف ابن عباس فرأى أنه لا نفقة لها ولا سكنى، لأن المبتوتة لا رجاء فيها، أي ليس لمطلقها أن يراجعها، بينما الآية التي استند إليها عمر هي في المطلقة طلاقاً رجعياً، وذلك لقوله تعالى في آخرها: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ

(١) سورة الطلاق: ١.

(٢) سورة الطلاق: ٦.

يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾[1]، أي لعل زوجها يراجعها[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ﴾[3]، وفي قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ﴾[4].

فقد فسر أبو بكر الصديق الكلالة بقوله: «أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً من الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: الكلالة من لا ولد له ولا والد»[5]، فقد رأى أبو بكر الصديق أن الكلالة اسم للميت الذي لا أصل له ولا فرع، وقد وقع هذا الاسم منصوباً في قوله تعالى: ﴿يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾، فدل ذلك على أن الكلالة صفة أو حال للميت نفسه الذي يموت

(١) سورة الطلاق: ١.
(٢) الشوكاني، نيل الأوطار ٦/٣٠١ ـ ٣٠٤.
(٣) سورة النساء: ١٢.
(٤) سورة النساء: ١٧٦.
(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٢/٢٠٠.

وليس له ولد ولا والد، وإذا كان بعض الصحابة فسر الكلالة بأنه اسم للوارث الذي لا ولد له ولا والد، فإن هذا التفسير ليس بدقيق في رأيي لأن كون الوارث له ولد ووالد أو ليس له ولد ووالد لا يؤثر في استحقاقه الإرث ولا يغير حكم ميراثه من مورثه، وكل علاقة الوارث بالكلالة أن لا يرث إلا في حالة الكلالة، أي لا يرث إلا قريبه الذي مات ولم يترك أصلًا ولا فرعاً. وعلى هذا تكون الكلالة صفة للميت المورث وليست للوارث والله أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾(١)، فسرت السيدة عائشة القروء هنا بالأطهار وليس بالحيضات، والذكاء هنا أن لفظة القروء من الأضداد، فيراد بها الطهر كما يراد بها الحيض، وذلك لأن الأصل المشترك في هذين المعنيين هو الوقت المعلوم المعتاد، سواء أكان هذا الوقت للمجيء أم للإدبار، وهذا هو السر اللغوي الدقيق في قول العرب: أقرأ النجم، إذا جاء وقت طلوعه أو جاء وقت أفوله، وقولهم: أقرأت الريح بمعنى هبت الريح لوقتها وحين هبوبها، وقد قال شاعرهم في ذلك:

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٨.

إذا مـا الـثـريـا وقـد أقـرأت

أحـسـن الـسـمـاكـان مـنـهـا أفـولا

وقال مالك بن الحارث الهذلي:

شنئت العقر عقر بني شليل

إذا هـبـت لـقـارئـهـا الـريـاح[1]

وعلى هذا الأساس، سمى بعض العرب وقت مجيء الحيض قرءاً، إذا كان وقتاً معلوماً لظهور الدم وإدبار الطهر، ومنه قوله ﷺ لفاطمة بنت أبي حبيش: «**دعي الصلاة أيام أقرائك**»، أي دعي أيام إقبال حيضتك.

كما سمى بعض آخر من العرب وقت مجيء الطهر قرءاً إذا كان وقتاً معلوماً لإقبال الطهر وإدبار الدم، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس:

وفي كل عام أنت جاشم غزوة

تـشـد لأقـصـاهـا عـزيـم عـزائـكـا

مورثة مالاً وفي المجد رفعة

لما ضاع فيها من قروء نسائكا[2]

---

(١) الطبري، جامع البيان ٢/٤٤٤.

(٢) الأعشى ديوانه ص١٢٢.

وبناء على هذا جاء الاختلاف في المعنى المراد من لفظة القروء في الآية: فرأى فريق أن المقصود من القروء هنا الحيض، ومنهم عمر وعلي وابن مسعود وأبو موسى. ورأى فريق آخر أن المقصود من القروء هنا الأطهار، وهو قول السيدة عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت.

والظاهر أن رأي السيدة عائشة هو الرأي الصحيح، والذي يحسم ذلك، هو فهم المطلوب القرآني من لفظة القروء بثلاثة، وفهم السيدة عائشة للعدد ثلاثة هو الذي جعلها تختار تفسير القروء هنا بالأطهار وليس بالحيض، وذلك على أساس أن الطلاق لا يقع إلا في الطهر، وأن عدة المطلقة تبدأ عقب وقوع الطلاق في ذلك الطهر وإذاً فالطهر الذي يقع فيه الطلاق وتبدأ فيه العدة للمطلقة هو الطهر الأول في الحساب الشرعي، أي بمعنى أدق: القرء الأول، ثم تأتي بعده حيضة أولى وطهر ثانٍ، أي قرء ثانٍ، ثم حيضة ثانية وطهر ثالث، أي: قرء ثالث، فإذا دخلت في الدم من الحيضة الثالثة، فقد بانت من زوجها، وبرئت منه وبرىء منها، ولا رجعة له عليها، ولا ميراث بينهما، وحلت للأزواج، وذلك لأنها استوفت الأطهار الثلاثة التي حددها الشرع لضمان براءة الرحم من الحمل، وهذا يؤكد ـ بما لا يدع مجالًا للشك ـ أن تفسير

القروء في الآية بالأطهار هو التفسير الدقيق الصحيح.

أما من ذهبوا إلى المراد بالقروء في هذه الآية الحيض، فقد حبسوا الأطهار هنا أربعة لا ثلاثة، وذلك لأنهم لم يحسبوا الطهر الأول الذي وقع فيه الطلاق وبدأت منه العدة، وإنما حسبوا الحيضة التي تعقبه قرءاً أولًا، ثم طهر فحيض ثانٍ أي قرء ثانٍ، ثم طهر فحيض ثالث أي قرء ثالث، فإذا اغتسلت المطلقة من دم الحيض الثالث ودخلت في الطهر الرابع فتكون حينئذ قد بانت من زوجها وحلت للأزواج وعلى هذا، فبإسقاطهم الطهر الأول - الذي لا يعتبرونه قرءاً والذي حدد فيه الشرع وقوع الطلاق وبدء العدة - وصلوا إلى الطهر الرابع، ومن الواضح أنه لا أهمية للطهر الرابع، لأن الشرع حدد الطهر الثالث لإعلان براءة الرحم من الحمل، وإذن فإن إضافتهم للطهر الرابع تعد تزيداً لا قيمة له من ناحية، كما أنه يخالف حد الشرع من ناحية أخرى، والله أعلم.

الفصل الرابع

المصادر

لم يكن الصحابة يملكون ـ في مواجهة تحديات عصرهم ـ إلا كتاب الله تعالى ـ القرآن الكريم ـ وسنة رسوله ﷺ، ثم ما أنعم الله به عليهم من قوة الإيمان ورسوخ العقيدة، وما منح كبارهم من دقة الفهم ونفاذ البصيرة وسداد المنطق ومتانة الفكر والرأي. وبهذا استمسكوا، وبه عملوا، وخاطبوا أمم الدنيا، وعلى هذا كانت أهم مصادر التفسير عند الصحابة هي:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ السنة النبوية الشريفة.

٣ ـ أسباب النزول.

٤ ـ الاجتهاد.

وفيما يلي نتناول هذه المصادر بشيء من التفصيل:

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن:

فأما عن المصدر الأول، فقد كان الصحابة يتوجهون في تفسيرهم أول ما يتوجهون إلى القرآن الكريم، فكانوا يفسرون القرآن بالقرآن، لأن القرآن كلام الله تعالى، وصاحب الكلام أدرى بمعانيه من غيره، والله هو صاحب القرآن، وهو صاحب الأمر كله، وخالق الخلق ومالك الملك، والقرآن كتاب يفسر بعضه بعضاً، فما أجمل منه في مكان فقد بسط في مكان آخر، وما أوجز منه في موضع فقد فصل في موضع آخر، والله سبحانه وتعالى أنزل كتابه ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[1]، وقال جل شأنه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[2]، وجعل دينه تاماً كاملًا وافياً، فقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[3].

وقد أرسى الرسول ﷺ هذه القاعدة الأولى في نظرية التفسير، وهي تفسير القرآن بالقرآن، ومن الأمثلة على ذلك تفسيره ﷺ الظلم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[4]، بالشرك الوارد في قوله

---

(١) سورة النحل: ٨٩.
(٢) سورة الأنعام: ٣٨.
(٣) سورة المائدة: ٣.
(٤) سورة الأنعام: ٨٢.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]، وذلك حين شق هذا الأمر على المسلمين[2].

وقد احتذى الصحابة رضوان الله عليهم حذو رسول الله ﷺ في تفسير القرآن بالقرآن، ونسجوا على منواله الشريف، فكان القرآن هو مصدرهم الأول في التفسير.

والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها تفسير ابن عباس لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[3]، فقال:

---

(١) سورة لقمان: ١٣.

(٢) انظر هذا التفسير في البخاري، صحيحه، كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم ١/١٥، وكتاب بدء الخلق باب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ ٤/١٧١ ـ ١٧٢، (تنبيه: في الجزء الرابع ص١٥٩ من طبعة الشعب توجد ملحوظة في الهامش تفيد بداية كتاب الأنبياء صلوات الله عليهم، ولم تثبتها الطبعة في المتن، بخلاف طبعات أخرى). وكتاب التفسير، (سورة الأنعام): ٦/٧١، (وسورة لقمان): ٦/١٤٣، ١٤٤، وكتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، وإثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة، أول حديث في هذا الكتاب ٩/١٧، وباب ما جاء في المتأولين ٩/٢٣ .ومسلم، صحيحه، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه ٢/١٤٢ ـ ١٤٤ .والترمذي، سننه، كتاب التفسير، سورة الأنعام: ٤/٣٢٧ حديث رقم ٥٠٦٢.

(٣) سورة غافر: ١١.

«يقول: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم، فهذه إحياءة، ثم يميتكم، فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه إحياءة، فهما ميتتان وحياتان، فهو قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾[2]، قال ابن عباس: «أخبر الله سبحانه ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوا، قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[3]: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[4]، يقول: من المهتدين، فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا

---

(١) سورة البقرة: ٢٨ .وانظر هذا الأثر في الطبري: جامع البيان ١/١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) سورة الأنعام: ١١٠.

(٣) سورة فاطر: ١٤.

(٤) سورة الزمر: ٥٦ ـ ٥٨.

نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، قال: «لو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا»[2].

وفي تفسير ابن مسعود لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾[3]، يرد تسمية اليهود بهذا الاسم إلى قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[4]، كما يرد تسمية النصارى بهذا الاسم إلى قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام وحوارييه: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[5]، وفي ذلك يقول ابن مسعود: «نحن أعلم الناس من أين تسمت اليهود باليهودية والنصارى بالنصرانية، إنما تسمت اليهود باليهودية بكلمة قالها موسى: «إنا هدنا إليك». فلما مات، قالوا: هذه الكلمة كانت تعجبه، فتسموا باليهود، وإنما تسمت النصارى بالنصرانية لكلمة قالها عيسى: ﴿مَنْ

---

(١) سورة الأنعام: ٢٨.

(٢) الطبري، جامع البيان ٧/٣١٤ ـ ٣١٥.

(٣) سورة البقرة: ٦٢.

(٤) سورة الأعراف: ١٥٦.

(٥) سورة الصف: ١٤.

أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، فتسموا بالنصرانية»[1].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾[2]، يقول ابن مسعود: «هذا يوم بدر، قد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلًا واحداً، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾[3].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾[4]. يفسر ابن مسعود القول اللين هنا بأنه قوله تعالى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩)﴾[5].

---

(١) السيوطي، الدر المنثور ١/٧٤ ـ ٧٥، ابن الجوزي، زاد المسير ١/١١.

(٢) سورة آل عمران: ١٢.

(٣) سورة الأنفال: ٤٤. والأثر في الطبري، جامع البيان ٣/١٩٥. ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور٢/١٠، وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٢/١٣ ـ ١٤.

(٤) سورة طه: ٤٣ ـ ٤٤.

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١١/٢٠٠.

وفي تفسير السيدة عائشة لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾[(١)]، فتربط السيدة عائشة بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾[(٢)].

ففي حديث البخاري الذي رواه بسنده عن عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ الآية، فقالت: يا بن أختي، هي اليتيمة تكون في حجر وليها[(٣)]، تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره[(٤)]، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق،

(١) سورة النساء: ١٢٧.

(٢) سورة النساء: ٣.

(٣) أي في ولايته وكفالته.

(٤) أي يريد أن يتزوجها دون أن يعطيها المهر الذي يعطيها إياه غيره.

وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، والذي ذكر الله أنه ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية الأولى التي قال فيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. وقول الله في الآية الأخرى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ يعني هي رغبة أحدكم ليتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن»(١).

٢ ـ التفسير بالسنة النبوية الشريفة:

لقد أمر الله سبحانه وتعالى بالإيمان برسوله محمد ﷺ مثلما أمر بالإيمان به ذاته جل وعلا، فقال

(١) البخاري، صحيحه، كتاب المظالم والغضب، باب شركة اليتيم وأهل الميراث ١٨٢/٣ ـ ١٨٣ .وانظر أيضاً: كتاب الوصايا، ، باب قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ ١٠/٤ ـ ١١ .وكتاب التفسير، سورة النساء: ٥٣/٦ ـ ٥٤ .مسلم، صحيحه، كتاب التفسير، سورة النساء: ١٥٤/١٨ ـ ١٥٥ وأبو داود، سننه، كتاب النكاح، باب ما يكره أن يجمع بينهن من النساء ٥١٨/١. والنسائي، سننه، كتاب النكاح، القسط في الأصدقة ١١٥/٦ ـ ١١٦ .والطبري، جامع البيان ٢٣١/٤ ـ ٢٣٢، ٣٠١/٥ ـ ٣٠٢.

سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾[1].

وجعل الله الإيمان بالرسول مرتبطاً بالإيمان به عز وجل في أسلوب قصر يفيد تعريف المؤمنين تعريفاً منطقياً دقيقاً، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2].

وجعل الله تعالى الرجوع إلى السنة المشرفة والأخذ بها طواعية، وعن رضاً واقتناع، والتسليم بأحكامها بارتياح نفسي واطمئنان قلبي، والخضوع لها خضوعاً مطلقاً ـ شرطاً للإيمان ـ ونفى الإيمان عمن لا يرجع إليها ولا يسلم بها، وأقسم الله على ذلك كله بذاته المقدسة، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[3].

وشرط الله على المؤمنين أنهم لن يكونوا مؤمنين حقاً بالله واليوم الآخر إلا إذا رجعوا إلى الرسول ﷺ وسنته الشريفة في المنازعات التي تنشب بينهم تماماً كما

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٨.

(٢) سورة النور: ٦٢.

(٣) سورة النساء: ٦٥.

يرجعون إلى كتاب ربهم، فقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾(١).

وقصر الله جواب المؤمنين حين يدعون إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله على السمع والطاعة، ومدحهم على ذلك ووصفهم بأنهم المفلحون، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١﴾(٢).

وجعل الله الإعراض عن تحكيم رسوله ﷺ في مواطن الخلاف والنزاع من علامات النفاق، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠﴾(٣).
فنفى عنهم الإيمان، ووصفهم بالظلم ورماهم بالنفاق.

---

(١) سورة النساء: ٥٩.
(٢) سورة النور: ٥١.
(٣) سورة النور: ٤٧ ـ ٥٠.

ولم يجعل الله للمؤمن خياراً إذا قضى الله ورسوله أمراً، ولم يجعل له في هذا القضاء مراجعة ولجاجاً، لأن قضاء الرسول كقضاء الله في حتمية الإلزام وضرورة الخضوع له، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(1).

وجعل الله مبايعة الرسول مبايعة لله تعالى، وبارك هذه المبايعة ونصرها بقوته وقدرته، ووعد الأوفياء بها أجراً عظيماً، وتوعد من ينكث، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾(2).

وجعل الله طاعة الرسول طاعة له جل وعلا، فقال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(3).

وسمى الله الفائزين ووصفهم وحدد صفاته ومنها أنهم يطيعون الرسول، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾(4).

---

(1) سورة الأحزاب: ٣٦.

(2) سورة الفتح: ١٠.

(3) سورة النساء: ٨٠.

(4) سورة النور: ٥٢.

وجعل الله اتباع الرسول شرطاً للظفر بالحب الإلهي وغفران الذنوب، فليس مهماً أن يحب الإنسان ربه بقدر ما هو مهم أن يحب الله عبده، والسبيل الوحيد الذي يضمن للإنسان المحب لله أن يبادله الله المحبة هو أن يطيع رسوله ﷺ، وفي هذه الحالة لن يحب الله محبه فقط، بل سينعم عليه أكثر بأن يغفر له ذنوبه ويسبغ عليه رحمته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[1].

وحكم الله على من يعص الرسول بالضلال، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[2]. بل حكم عليه بالكفر، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[3].

وحذر الله سبحانه وتعالى عصاة السنة والمعرضين عن طاعة الرسول من انتقامه وعذابه، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ

(١) سورة آل عمران: ٣١.
(٢) سورة الأحزاب: ٣٦.
(٣) سورة آل عمران: ٣٢.
(٤) سورة المائدة: ٩٢.

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]. كما حذرهم من الندم يوم لا ينفع ندم وهم في جهنم تمرغ وجوههم في النار، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾[2].

وهكذا تبين هذه النصوص الكريمة وغيرها كثير قيمة السنة النبوية الشريفة وعظمتها وسمو مكانتها وأهميتها في كمال الإيمان وأساس التشريع، وضرورة طاعة الرسول ﷺ ووجوب الأخذ بسنته المطهرة والالتزام بأوامره، والانتهاء عن نواهيه.

ولقد وَقَّر الصحابة رضوان الله عليهم سنة الرسول ﷺ وعظموها ونصروها، والتزموا بها التزاماً دقيقاً، إلى درجة أنهم كانوا ينفذون أوامر الرسول ﷺ تنفيذاً فورياً مباشراً دون مناقشة، ولعل مما يصور ذلك أبلغ تصوير أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه دخل المسجد ليصلي الجمعة والرسول ﷺ يخطب، فسمع الرسول ﷺ يقول: «**اجلسوا**»، فجلس فوراً على باب المسجد بمجرد أن سمع هذه الكلمة من النبي ﷺ، فرآه

(١) سورة النور: ٦٣.

(٢) سورة الأحزاب: ٦٦.

الرسول ﷺ، فقال له: **«تعال يا عبدالله بن مسعود»**(١).

ولقد اتخذ الصحابة رضوان الله عليهم من السنة المصدر الثاني للتفسير عندهم، واعتمدوا عليها اعتماداً أساسياً، وأكثروا من الاستعانة بها، وأنحوا باللائمة على من يرى الاكتفاء بالقرآن وحده، ومما يوضح ذلك أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله»(٢). فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب ـ وكانت تقرأ القرآن ـ فقالت له: ما حديث بلغني عنك؟ أنك لعنت الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن

---

(١) أبو داود، سننه، كتاب الصلاة، باب الإمام يكلم الرجل في خطبته ١/٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٢) الواشمة: من تفعل الوشم، والوشم أثر الغرز بإبرة أو نحوها، ثم يذر على موضع الغرز كحل أو ما شابهه فيخضر ويبقى ولا يزول إلا بعملية جراحية. والمستوشمة: من تطلب الوشم. والنامصة: التي تفعل النمص. والنمص: إزالة شعر الوجه أو نتف الحاجبين أو ترفيعهما، والمتنمصة: من تطلب النمص. والمتفلجة: من تحدث الفلج بين أسنانها، والفلج: توسيع ما بين الأسنان خاصة الأمامية منها. وكل هذا من أنواع الزينة المحرمة لأنه تغيير لخلق الله وتصنع وتظاهر وتغرير وخداع يخالف الحقيقة.

المغيرات خلق الله؟ فقال عبدالله: «ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله». فقالت المرأة: والله لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته، فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، قال عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1]. فقالت: المرأة: فإني أرى شيئاً من هذا على امرأتك الآن، قال: اذهبي فانظري، فدخلت على امرأة عبدالله فلم تر شيئاً، فجاءت إليه، فقالت: ما رأيت شيئاً، فقال: أما لو كان ذلك لم نجامعها»[2]، وفي رواية، قال: «لو كان ذلك ما كانت معنا»[3].

وبينما كان الصحابي الجليل عمران بن حصين رضي الله عنه يحدث عن سنة النبي ﷺ إذا برجل يعترض ويطلب منه أن يحدث بالقرآن ولا يحدث بالسنة، بحجة أن من السنة ما ليس له أصل في القرآن. فغضب

---

(١) سورة الحشر: ٧.

(٢) مسلم، صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة ١٤/١٠٥ ـ ١٠٧، وانظر: البخاري، صحيحه، كتاب اللباس، باب المتفلجات للحسن، وباب المتنمصات، وباب الموصولة، وباب المستوشمة ٧/٢١٢ ـ ٢١٤.

(٣) أبو داود، سننه، كتاب الترجل، باب في صلة الشعر ٢/٤٣٠.

عمران ووبخه، وبين له أن السنة شارحة للقرآن وموضحة له، وضرب له على ذلك أمثلة عديدة، منها أن القرآن أمر بإقامة الصلاة ولكنه لم يبين مثلا عدد ركعاتها وما يجهر فيها بالقرآة، وأمر القرآن بإيتاء الزكاة ولكن لم يبين نصابها من كل نوع من أنواع المال... وهكذا، وقال له الصحابي الجليل في النهاية: «كتاب الله أحكم ذلك والسنة تفسره». روى الخطيب البغدادي في كتابه «الكفاية»: «أن عمران بن حصين كان جالساً ومعه أصحابه، فقال رجل من القوم: لا تحدثونا إلا بالقرآن، قال: فقال له: ادنه، فدنا، فقال: أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعاً؟ وصلاة العصر أربعاً؟ والمغرب ثلاثاً تقرأ في اثنتين؟ أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد الطواف بالبيت سبعاً، والطواف بالصفا والمروة؟ ثم قال: أي قوم، خذوا عنا، فإنكم والله إن لا تفعلوا لتضلن»[1].

وساق الخطيب رواية أخرى قال: «إن رجلًا قال لعمران بن الحصين: ما هذه الأحاديث التي تحدثونها وتركتم القرآن؟ قال: أرأيت لو أبيت وأصحابك إلا

(١) الخطيب البغدادي، الكفاية ص١٥.

القرآن، من أين كنت تعلم صلاة الظهر عدتها كذا وكذا، وصلاة العصر عدتها كذا، وحين وقتها كذا، وصلاة المغرب كذا، والموقف بعرفة، ورمي الجمار كذا، واليد من أين تقطع؟ من ههنا أم ههنا أم من ههنا، ووضع يده على مفصل الكف، ووضع يده عند المرفق، ووضع يده عند المنكب، اتبعوا حديثنا ما حدثناكم، وإلا والله ضللتم»[1].

وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم ينظرون إلى السنة النبوية الشريفة باعتبارها شارحة للقرآن ومفسرة له، وأنه يستحيل تفسير كثير من آيات القرآن تفسيراً صحيحاً إلا بالرجوع إليها والاعتماد عليها، والغض عنها كفر وفشل في الدين والتفسير.

وكان الصحابة في تفسيرهم يستعينون أولًا بالقرآن، فإن لم يجدوا فيه طلبتهم لجؤوا إلى السنة النبوية، فهي المصدر الثاني للتفسير عندهم، والأداة التفسيرية الرئيسية الثانية.

---

(١) المصدر السابق ص١٥ ـ ١٦، وانظر في هذا الخبر: عبدالرزاق، المصنف ١١/٢٥٥ والحاكم، المستدرك ١/١٠٩ ـ ١١٠، وصححه ووافقه الذهبي، والسيوطي، مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ص١٤٨، ١٤٩، ١٨٢، ٢٢١ ـ ٢٢٢.

وكانوا رضوان الله عليهم يروون ما أثر عن رسول الله ﷺ من التفسير، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عن عبدالله بن عمرو في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾[1]، فقال: «سأل أعرابي النبي ﷺ عن الصور، فقال: «قرن ينفخ فيه»[2].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يلقون الضوء على بعض الآيات بما جاء عن رسول الله ﷺ متعلقاً بمعانيها الثانية وبمغزى دلالتها، ومن الأمثلة على ذلك، قول أبي بكر الصديق: «يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾[3]، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن القوم إذا رأووا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بعقاب**»[4].

---

(١) سورة النمل: ٨٧.

(٢) الترمذي، سننه، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في الصور ٤١/٤ حديث رقم ٢٥٤٧ .وكتاب التفسير، (سورة الزمر): ٥٠/٥ حديث رقم ٢٢٩٥ وانظر: أبو داود، سننه، كتاب السنة، باب في ذكر البعث والصور ٥٨٧/٢ .وأحمد، المسند ١٦٢/٢، ١٩٢ .والحاكم، المستدرك ٤٣٦/٢، ٥٠٦، ٥٦٠/٤ وصححه ووافقه الذهبي. والطبري، جامع البيان ٢٤/١٦.

(٣) سورة المائدة: ١٠٥.

(٤) أبو داود، سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي ٤٧٦/٢، والترمذي، سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا =

وكان الصحابة رضوان الله عليهم إذا سئلوا عن شيء من التفسير وكان عندهم من رسول الله ﷺ فيه حديث أو سنة، أجابوا به. ومن الأمثلة على ذلك أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا

= لم يغير المنكر ٣١٦/٣، حديث رقم ٢٢٥٧، وكتاب التفسير، سورة المائدة: ٣٢٢/٤ ـ ٣٢٣ حديث رقم ٥٠٥٠، وابن ماجه، سننه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٣٢٧/٢ حديث رقم ٤٠٠٥ وأحمد، المسند ٢/١، ٥، ٧، ٩ والطبري، جامع البيان ٩٨/٧ ـ ٩٩، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٢٠٧/٢.

وقد ورد هذا الحديث مرفوعاً وموقوفاً، وأرجح كونه مرفوعاً وذلك لورود ما يعزز معناه ويقويه في القرآن الكريم وفي السنة المشرفة، فأما القرآن الكريم ففي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ (سورة الأنفال: ٢٥). وأما السنة النبوية فقد جاء من حديث جرير بن عبد الله البجلي مرفوعاً بلفظ: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز منهم وأمنع، لا يغيرون، إلا عمهم الله بعقاب». رواه أبو داود، سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ١٣٢٩/٢ حديث رقم ٤٠٠٩ وأحمد، المسند ٣٦١/٤، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٦، وعبدالرزاق، المصنف رقم ٢٠٧٢٣ .البيهقي، سننه، ٩١/١٠.

غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[1]، فقال عمر: «سمعت رسول الله ﷺ يسئل عنها، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل خلق آدم، فمسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون. فقال رجل يا رسول الله، ففيم العمل؟ فقال: رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل أهل النار، فيدخله به النار**»[2].

وسأل رجل من أهل مصر أبا الدرداء رضي الله عنه عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[3]، فقال له: «ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٢.

(٢) النسائي، تفسيره ١/٥٠٤ ـ ٥٠٥، وانظر أبو داود، سننه، كتاب السنة، باب في القدر ٢/٥٧٧ ـ ٥٧٨، والترمذي، سننه، كتاب التفسير، سورة الأعراف: ٤/٣٣١ حديث رقم ٥٠٧١ وأحمد، المسند ١/٤٤ ـ ٤٥، والطبري، جامع البيان ٩/٧٧، ٧٧ ـ ٧٨، والحاكم، المستدرك ١/٢٧، ٢/٣٢٤، ٥٤٤.

(٣) سورة يونس: ٦٤.

عنها، فقال: «**ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت، هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له**»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها وقد سألها أبو عبيدة عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ١﴾[2]، قالت: «نهر أعطيه نبيكم ﷺ»[3]، وفي رواية أخرى قالت: «الكوثر نهر في الجنة»[4].

وهذا التفسير منها رضي الله عنها يستند إلى حديث نبوي شريف، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذا أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «**أنزلت علي آنفاً سورة**، فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ٣﴾ ثم قال: «**أتدرون ما الكوثر**»؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم،**

---

(١) الترمذي، سننه، كتاب التفسير، سورة يونس: ٣٥٠/٤ حديث رقم ٥١٠٤.

(٢) سورة الكوثر: ١.

(٣) البخاري، صحيحه، كتاب التفسير، سورة الكوثر: ٢١٩/٦.

(٤) الطبري، جامع البيان ٢٠٧/٣٠.

فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك»[1].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يقيمون السنة النبوية الشريفة حكماً بين المعاني القرآنية ومميزاً لأحكامها، ومبيناً لأهدافها. ومن الأمثلة على ذلك: ـ أن يعلى بن أمية قال: «قلت لعمر بن الخطاب: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾[2]، فقد أمن الناس؟ فقال: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: **«صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»**[3].

وعن أبي حنظلة الحذاء، قال: سألت ابن عمر عن

---

(١) مسلم، صحيحه، كتاب الصلاة، باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة: ١١٢/٤، ١١٣ .وانظر: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ٦٤/١٥ ـ ٦٥. وانظر أيضاً: أبو داود، سننه، كتاب السنة، باب من لم ير الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ٢٠١/١، وكتاب السنة، باب في الحوض ٥٨٨/٢ .والنسائي، سننه، كتاب الافتتاح، باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم ١٣٣/٢ ـ ١٣٤.

(٢) سورة النساء: ١٠١.

(٣) مسلم، صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ١٩٦/٦. وانظر: الترمذي، سننه، كتاب التفسير، سورة النساء: ٣٠٩/٤ حديث رقم ٥٠٢٥ .وأحمد، المسند ٢٥/١، ٣٦.

صلاة السفر فقال: ركعتان، فقلت: أين قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾[1]، ونحن آمنون؟ قال: سنة رسول الله ﷺ»[2].

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً: أن رجلًا جاء إلى ابن عباس يستفتيه في امرأة ولدت بعد وفاة زوجها بأربعين ليلة، أيصلح لها أن تتزوج؟ يريد الرجل أن يسأل عن مدة العدة الشرعية في حقها. وكان أبو هريرة وأبو سلمة بن عبدالرحمن جالسين مع ابن عباس فقال ابن عباس: آخر الأجلين، وقال أبو سلمة: قد حلت بالوضع، ووافقه أبو هريرة، ورد ابن عباس بأن ما يريانه إنما يكون في حالة الطلاق لا حالة الزواج.

والواقع أن هناك آيتين في عدة هذه المرأة: الآية الأولى في عدة المتوفى عنها زوجها، والأخرى في عدة الحامل. فأما الأولى فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[3]، والآية الأخرى قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن

---

(١) سورة النساء: ١٠١.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣٤٨/٢ نقلًا عن ابن أبي شيبة، وانظر: أحمد، المسند ٣١/٢.

(٣) سورة البقرة: ٢٣٤.

﴿يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[1]. وواضح أن الآية الأولى تقتضي أن العدة في حقها أربعة أشهر وعشراً، وهي عدة المتوفى عنها زوجها، وهذه المرأة توفى عنها زوجها. وأن الآية الأخرى تقتضي أن العدة في حقها وضع الحمل، وهي عدة الحامل، وهذه المرأة أيضاً كانت حاملًا ثم وضعت.

وبناء على ذلك رأى ابن عباس أن العمل في حق هذه المرأة يكون بأبعد الأجلين، يعني إن تأخر وضع الحمل عن أربعة أشهر وعشراً يؤخذ به، وإن تقدم يؤخذ بأربعة أشهر، على أساس أن هذا العمل هو الأحوط، بينما رأى أبو سلمة وأبو هريرة أن العمل في حقها يكون إذا ولدت.

ولما وقع الاختلاف بين الصحابيين الجليلين ابن عباس وأبي هريرة في هذه المسألة احتكما إلى السنة النبوية الشريفة، فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أم سلمة رضي الله عنها يسألها عن سنة رسول الله ﷺ في هذه المسألة.

وأخبرتهم أم سلمة بفتوى رسول الله ﷺ لسبيعة بنت الحارث الأسلمية التي توفى عنها زوجها سعد بن خولة في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن

---

(١) سورة الطلاق: ٤.

وضعت حملها بعد وفاته بليال معدودات، قيل إنها شهر وقيل نصف شهر، وقيل خمس وعشرون ليلة، وقيل ثلاث وعشرون ليلة... المهم أنها وضعت لأدنى من أربعة أشهر بل لأدنى من شهر من يوم مات زوجها، فتقدم لها الخُطَّاب، وكان أبو السنابل بن بعكك أحد المتقدمين لخطبتها، وأعلمها أنها لن تحل إلا بعد أربعة أشهر وعشراً من يوم وفاة زوجها، فذهبت إلى رسول الله ﷺ واستفتته في ذلك، فقال لها: «**قد حللت فانحكي من شئت**» أي أنه صلوات الله وسلامه عليه أفتاها بأنها حلت حين وضعت حملها ولها أن تتزوج(١).

وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يلجؤون إلى السنة النبوية الشريفة يلتمسون فيها الحل المنشود لما يواجههم من قضايا فقهية وتفسيرية.

٣ ـ التفسير بأسباب النزول:

لقد نزلت أغلب السور والآيات بغرض تحقيق

---

(١) انظر: البخاري، صحيحه، كتاب التفسير، سورة الطلاق: ١٩٣/٦، ١٩٤ .ومسلم، صحيحه، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل ١٠٨/١٠ ـ ١١١ .والنسائي، سننه، كتاب الطلاق، باب عدة الحامل المتوفى عنها زوجها ١٩٠/٦ ـ ١٩٧.

الهدف العام الذي من أجله أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم وهو هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ويعبر العلماء عن ذلك بقولهم إن أغلب سور القرآن الكريم وآياته نزلت «ابتداء» أي نزلت غير مرتبطة بأسباب أخرى غير تحقيق هذا الهدف العام، ودون أن يكون لتنزيلها أسباب معينة أو دوافع خاصة.

ولكن بعض السور والآيات نزلت بسبب معين تطلب نزولها وارتبط تنزيلها به، فحدث النزول بناء على هذا السبب. ويكون ذلك في حالتين:

أ ـ أن تحدث حادثة تتطلب حكم الله فيها، فينزل القرآن بهذا الحكم.

ب ـ أو أن يسئل رسول الله ﷺ عن شيء، فينزل القرآن بالجواب عن هذا السؤال.

وسبب النزول مصدر خصب من مصادر التفسير، وأصل هام من أصوله، وأداة رئيسية من أدواته لا يستغنى عنها أي مفسر مهما أوتي من سعة العلم. وذلك لأن سبب النزول يظهر معاني الآية بجلاء، ويعين على فهمها فهماً صحيحاً مستقيماً، ويرفع الإشكالات التي يمكن أن ترد عليها، ويمنع وقوع الاختلافات حولها، ويبعد العقل

عن مزالق الخطأ في تفسيرها، خاصة وأن بعض الآيات يستحيل فهم معناها على الوجه الصحيح إلا بالرجوع إلى سبب نزولها.

وسبب النزول يصور الجو النفسي الذي نزلت فيه الآية، فهو بمثابة التجربة الوجدانية للنص، فيدل على لمحات الجمال التعبيري فيه والفنيات الأسلوبية بما يؤدي إليه من كشف مقتضى حال المخاطب، وبما يشير إليه من الظروف والملابسات التاريخية التي أحاطت بتنزيله، وبما يدل عليه من دلالات الحياة والبيئة والمكان الذي نزل فيه النص.

ولا شك أن سبب النزول يفصل ما قد يكون في النص من إجمال، ويوضح ما قد يكون فيه من خفاء، ويحسم قضية عموم اللفظ وخصوصيته، وإطلاقه وتقييده، ويبين وجه العبرة أهي بخصوص السبب أن بعموم اللفظ.

وهكذا يكون سبب النزول عاملًا من عوامل تيسير حفظ النص، وتثبيت معناه الصحيح في الأذهان والذواكر، كما يعد من أهم مقومات تفسيره وتوضيحه وكشف اللبس عنه.

وكل هذا إنما يؤدي في النهاية إلى تجلية حكمة

الشرع الذي جاء في النص المقدس، وتركيز الضوء على الهدى الذي يتضمنه.

وطبعي أن يكون اعتماد المفسرين وعلماء القرآن في معرفة أسباب النزول على النقل والرواية عمن شاهدوا الوحي والتنزيل ووقفوا على الأسباب وجدوا في طلابها. ولا شك أن الصحابة رضوان الله عليهم مصدر أساسي لمعرفة أسباب النزول، فقد آمنوا برسول الله ﷺ، وصدقوا ما جاءهم به من عند الله، وافتدوه بكل غالٍ ونفيس لديهم، ووقفوا معه وناصروه، وكانوا معه أينما كان، في حله وترحاله، وأسفاره ومغازيه، وشاهدوا الوحي والتنزيل، وعايشوا أحداث الدعوة الإسلامية، وواكبوا تطورها، وشاركوا فيها مشاركة إيجابية فعالة، وكان منهم أصحاب المواقف التي نزل فيها قرآن، وكان منهم أصحاب المشكلات والقضايا التي نزل القرآن لمعالجتها وتبيين حكم الله فيها، وكان منهم شخصيات رئيسية دارت حولها محاور أحداث استدعت نزول القرآن من أجلها.

وكان من الصحابة علماء بأسباب النزول، ومنهم ابن مسعود وعلي بن أبي طالب وابن عباس والسيدة عائشة وغيرهم. ويقول ابن مسعود عن معرفته الواسعة بأسباب النزول، ومدى استعداده لتحمل المشاق من أجل

معرفة المزيد منها ممن يكون عنده علم بها أكثر منه: «والذي لا إله غيره، ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حيث نزلت، وما من آية إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحداً هو أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه»[1]. ويقول علي بن أبي طالب عن معرفته الشاملة بأسباب النزول، وزمن النزول ومكانه: «سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم نهار، أم في سهل أم في جبل»[2]، ويقول أيضاً: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما أنزلت وأين أنزلت»[3].

وتفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل فيما يتعلق بأسباب النزول له قيمة كبرى، إذ يعد مرفوعاً عند كثير من العلماء منهم الحاكم وابن الصلاح والنووي وابن كثير والعراقي[4].

---

(١) مسلم، صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما ١٧/١٦.

(٢) السيوطي، الإتقان ٢٣٣/٤. وانظر: ابن حجر، الإصابة ٥٦٨/٤ ترجمة علي بن أبي طالب رقم ٥٦٩٢.

(٣) السيوطي، الإتقان ٢٣٣/٤.

(٤) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص٢٠، وابن الصلاح، مقدمته ص١٢٨ ـ ١٢٩ .والسيوطي، تدريب الراوي ١١٢/١ ـ ١١٣، وابن كثير، اختصار علوم الحديث ص٤٧، والعراقي، فتح المغيث ٦٣/١.

ولقد استخدم الصحابة رضوان الله عليهم أسباب النزول في تفسيرهم لإزالة الإبهام عن معنى الآية المرتبطة بسبب نزول يجهله البعض، وكانت أسباب النزول من أهم مصادر الصحابة في التفسير ومن أهم أداواتهم التفسيرية الرئيسية.

ومن الأمثلة على ذلك ما رواه أسلم أبو عمران التجيبي عما حدث في إحدى المعارك التي دارت بين المسلمين والروم في مدينة القسطنطينية وكيف خرج الروم في جيش عظيم لملاقاة المسلمين، وكيف اندفع أحد فرسان المسلمين بشجاعة وإقدام، وحمل على العدو حملة عظيمة حتى اقتحم صفوفه، فقال المسلمون متجزعين عليه: سبحان الله، ألقى الفتى بنفسه إلى التهلكة، يتأولون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1]، فارتاع الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري من هذا التأويل، وكان يغزو معهم، فقام فيهم قائلًا: «يا أيها الناس، إنكم لتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار. لما أعز الله الإسلام، وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض ـ سراً دون رسول الله ﷺ ـ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز

---

(١) سورة البقرة: ١٩٥.

الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلناه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾. فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا العدو»[1].

وهكذا أزال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه اللبس عن الوجه الصحيح للآية، ونفى عنه التأويل الخطأ - الذي ربما مازال بعض الجهال يتأولونه - وبيّن أن المعنى الحق لهذه الآية مرتبط بسبب نزولها ارتباطاً وثيقاً، وهو أن الإلقاء بالأيدي إلى التهلكة إنما هو الانصراف إلى المال ومراعاته وتكثيره، وترك الجهاد في سبيل الله، فكان معنى الآية إذاً: وأنفقوا في سبيل الله ولا تتركوا الجهاد في سبيله حتى لا تكونوا بترككم الجهاد في سبيل الله قد ألقيتم بأنفسكم إلى التهلكة.

ومن الأمثلة على استعانة الصحابة

---

(١) الترمذي، سننه، كتاب التفسير، سورة البقرة: ٢٨٠/٤ حديث رقم ٤٠٥٣ .وانظر أيضاً: أبو داود، سننه، كتاب الجهاد، باب قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ ١٣/٢ .والحاكم، المستدرك ٨٤/٢، ٢٧٥ .والبيهقي، سننه ٤٥/٩ .والنسائي، تفسيره ٣٢٦/١ - ٣٣٩. والطبري، جامع البيان ٢٠٤/٢، والسيوطي، الدر المنثور ٢٠٧/١.

رضوان الله عليهم بأسباب النزول لإزالة الإشكال في الآية، ما رواه عروة بن الزبير عندما سأل خالته السيدة عائشة رضي الله عنها عما استشكل عليه من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾[1]، فقد التبس على عروة فهم هذه الآية، واستشكل عليه أن ظاهر معناها يقتضي أن السعي ليس بفرض، فذهب إلى عدم فرضيته. ولكنه لما سأل السيدة عائشة عن معنى هذه الآية أفهمته معناها الصحيح عن طريق سبب نزولها، وأزالت الغموض والإشكال، وبينت له أن الله تعالى أنزل هذه الآية وفرض فيها السعي على الحاج والمعتمر، وذلك ليرفع الحرج عن الأنصار حين تأثموا من السعي الذي كان من عملهم في الجاهلية. قال عروة: «سألت عائشة رضي الله عنها، فقلت لها: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾، فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة. قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح عليه ألا يتطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن

---

(١) سورة البقرة: ١٥٨.

يسلموا يهلون لمناة[1]، الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل[2]، فكان من أَهَلَّ يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة[3]، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، قالوا: يا رسول الله، أنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية. قالت عائشة رضي الله عنها: «وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما»[4].

---

(١) مناة: وثن من أوثان العرب في الجاهلية.

(٢) المشلل: ثنية في قديد، وقديد موضع بين مكة والمدينة، وكانت مناة حذو قديد.

(٣) كان ذلك سنة في آبائهم: من أحرم لمناة لم يطف بالصفا والمروة. انظر: مسلم، صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن السعي لا يكرر ٩/٢٤.

(٤) البخاري، صحيحه، كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة ١٩٣/٢، وباب يفعل في العمرة ما يفعل في الحج ٧/٣. وكتاب التفسير، سورة البقرة: ٢٧/٦ ـ ٢٨ وانظر: مسلم، صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة لا يصح الحج إلا به ٢٠/٩ ـ ٢٤ .والترمذي، سننه، أبواب التفسير، سورة البقرة: ٣٧٧/٤ حديث رقم ٤٠٤٥ .وأبو داود، سننه، كتاب المناسك، باب أمر الصفا والمروة ٤٧٧/١. والنسائي، سننه، كتاب مناسك الحج، ذكر الصفا والمروة ٢٣٧/٥ ـ ٢٣٩ .وأحمد، المسند ١٦/٦، ١٤٤، ٢٢٧. =

ومن الأمثلة أيضاً ما روي عن مروان بن الحكم بن أبي العاص وكان يومئذ أميراً على المدينة من قبل معاوية بن أبي سفيان، فقد استشكل عليه معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾[1]، فأرسل رافع بن خديج إلى ابن عباس يسأله عنها. ففسرها له ابن عباس عن طريق سبب نزولها، وكشف له معناها الصحيح على هذا الأساس وأنها في أهل الكتاب، وربطها بالآية التي قبلها، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾[2].

روى البخاري «أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل، معذباً، لنعذبن أجمعون.

= والحاكم، المستدرك ٢/٢٥٢، والبيهقي، سننه ٥/٩٦ ـ ٩٧، وابن ماجه، سننه، كتاب المناسك، باب السعي بين الصفا والمروة ٢/٩٩٤ ـ ٩٩٥ حديث رقم ٢٩٨٦، والنسائي، تفسيره ١/١٩٩ ـ ٢٠٠، ومالك، الموطأ ـ رواية يحيى بن يحيى الليثي، كتاب الحج، باب جامع السعي ١/٢٤٣ ـ ٢٤٤ والطبري، جامع البيان ٢/٤٧ ـ ٤٨، ٥١.

(١) سورة آل عمران: ١٨٨.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٧.

فقال ابن عباس: وما لكم بهذه؟ إنما دعا النبي ﷺ يهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم. ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كذلك حتى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾[1].

وهكذا كانت أسباب النزول من أهم مصادر التفسير عند الصحابة ومن أهم أدواته الرئيسية.

٤ ـ التفسير الاجتهادي:

لا يستطيع أحد أن ينكر أثر البصمة الشخصية في أي عمل إنساني خاصة ما يتعلق بالفكر منه، وإذا نظرنا إلى التفسيرات المبكرة للقرآن الكريم، والتي اصطلح العلماء على تسميتها بالتفسيرات السلفية ـ فإننا لا نستطيع

---

(١) البخاري، صحيحه، كتاب التفسير، (سورة آل عمران) ٦/٥٠ ـ ٥١ .وانظر: مسلم، صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ١٧/١٢٣ ـ ١٢٤. والترمذي، سننه، كتاب التفسير، (سورة آل عمران) ٤/٣٠٠ ـ ٣٠١ حديث رقم ٥٠٠٢ وأحمد، المسند ١/٢٩٨ .والحاكم، المستدرك ٢/٢٩٩، والطبري، جامع البيان ٤/٢٠٧ ـ ٢٠٨، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٢/١٥٧ ـ ١٥٨، والسيوطي، الدر المنثور ٢/١٠٨.

أن ننكر إحساسنا القوي بروح صاحب التفسير وطريقته في التفكير، ومنهجه الذي يصطنعه، وأدواته التي يبتكرها، وطابعه الفردي الخاص الذي يميز عمله عن غيره.

والإسلام دين الفكر والعقل وقد دعا إلى التدبر والاجتهاد والاعتبار والاستنباط، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[3]، وقوله تبارك: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾[4]، وقوله عز وجل: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[5]، وقوله عز من قائل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[6]، وقوله وهو أصدق القائلين: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ

---

(١) سورة ص: ٢٩.

(٢) سورة النساء: ٨٢.

(٣) سورة محمد: ٢٤.

(٤) سورة المؤمنون: ٦٨.

(٥) سورة الحشر: ٢.

(٦) سورة آل عمران: ١٣ .وسورة النور: ٤٤.

(٧) سورة الأنعام: ٩٨.

﴿ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٤٢﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، وقوله تبارك: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[5]، وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[6].

وقد تحدث القرآن الكريم عن المفكرين المجتهدين واستنباطهم الأحكام وردهم المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[7]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ

---

(١) سورة البقرة: ٢١٩، ٢٦٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٢.

(٣) سورة الحشر: ٢١.

(٤) سورة العنكبوت: ٤٣.

(٥) سورة الأنعام: ٥٠.

(٦) سورة البقرة: ٤٤، ٧٦، وسورة آل عمران: ١٦٥، وسورة الأنعام: ٣٢، وسورة الأعراف: ١٦٩، وسورة يونس: ١٦، وسورة هود: ٥١، وسورة يوسف: ١٠٩، وسورة الأنبياء: ١٠، ٦٧، وسورة المؤمنون: ٨٠، وسورة القصص: ٦٠، وسورة الصافات: ١٣٨.

(٧) سورة الشورى: ١٠.

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1]، وقوله تبارك: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[2].

وقد وجه النبي ﷺ إلى الاجتهاد وحث عليه، ولعل مما يدل على ذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه لعمر بن الخطاب حين سأله عن معنى الكلالة: «يكفيك آية الصيف»[3]. فقصد النبي ﷺ أن يوجه عمر إلى قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾[4]، التي نزلت صيفاً حين كان النبي ﷺ يتجهز إلى مكة. فوكله الرسول ﷺ إلى استنباطه والاستدلال عليه. وهذا يدل على تسويغ اجتهاد الرأي في الأحكام واعتباره أصلّا من أصول الدين.

ومما يدل على ذلك أيضاً أن النبي ﷺ أوكل إلى سعد بن معاذ أن يحكم في بني قريظة، فحكم سعد بأن يقتل رجالهم وتسبى ذراريهم ونسائهم، وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من**

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) سورة النساء: ٨٣.

(٣) الجصاص، أحكام القرآن ٨٧/٢.

(٤) سورة النساء: ١٧٦.

فوق سبع أرقعة»[1]. فقد قدمه النبي ﷺ للاجتهاد في قضية لها أهميتها وخطورتها، وأقر اجتهاده، ورضي بحكمه، وَبَشَّرَهُ بأنه يتفق مع حكم الله تعالى. ويبدو أن هذه الموافقة جاءت من أن سعداً قاسهم على المحاربين الذين قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾[2]، وذلك بجامع الفساد لموالاتهم قريشاً في واقعة الأحزاب ونقضهم عهدهم مع النبي ﷺ. أو ربما قاسهم سعد على الأسرى الذين نزل فيهم القرآن معاتباً النبي ﷺ على إطلاقه سراحهم نظير أخذ الفدية منهم، وإقراراً لحكم الله فيهم وهو القتل، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[3].

ولعل «موافقات عمر» رضي الله عنه تفصح بجلاء عن مدى الحرية الفكرية التي أتاحها الإسلام ووفرها، واحترامه الرأي المستنير، وإقراره الاجتهاد البناء، فلقد اجتهد عمر في مسائل عديدة على عهد رسول الله ﷺ -

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ق٢/٢٤٠ والأرقعة: السماوات، الواحدة: رقيع.
(٢) سورة المائدة: ٣٣.
(٣) سورة الأنفال: ٦٧.

أوصلها بعض العلماء إلى خمسة عشر رأياً - ونزل القرآن الكريم موافقاً رأي عمر واجتهاده، حتى لقد قال النبي ﷺ: «**إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه**»[(١)].

ومن هذه الموافقات أن عمر رأى أن يتخذ المسلمون من مقام إبراهيم مصلى. فنزل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾[(٢)]، ورأى أن تتحجب نساء النبي ﷺ إذ يدخل عليهن البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب، ورأى أن يقتل أسارى بدر، فنزل القرآن بموافقته، ولما توفي عبدالله بن أبي بن سلول، قام النبي ﷺ ليصلي عليه، فأخذ عمر بثوب النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله إنه منافق. فصلى عليه رسول الله ﷺ إذ هو نبي الرحمة، فأنزل الله عليه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾[(٣)].

ولقد كان الرسول ﷺ يستشير أصحابه في كثير من الوقائع ويأخذ برأيهم واجتهادهم، كالنزول عند ماء بدر، وحفر الخندق حول المدينة المنورة يوم الأحزاب،

---

(١) الترمذي، سننه، أبواب المناقب، مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٥/٢٨٠ حديث رقم ٣٧٦٥.

(٢) سورة البقرة: ١٢٥.

(٣) سورة التوبة: ٨٤.

والخروج خارج المدينة لملاقاة قريش يوم أحد وغير ذلك.

ولم يكن النبي ﷺ يعنف من يجتهد من المسلمين حتى ولو أخطأ في اجتهاده، بل كان ينبهه إلى خطأه بلطف، كما حدث حين أجنب عمار بن ياسر رضي الله عنه فتمعك في الصعيد وصلى، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ بين له كيفية التيمم، وقال له: «**إنما كان يكفيك هكذا**»، وضرب النبي ﷺ بكفيه في الأرض ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفيه.

ولما احتلم عمرو بن العاص رضي الله عنه في غزوة ذات السلاسل، لم يغتسل خوفاً من الهلاك لشدة البرد، فتيمم وصلى بأصحابه الصبح، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال له: «**يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب**»؟ فقال عمرو: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[1]، فضحك النبي ﷺ ولم يقل له شيئاً.

واجتهاد الصحابة رضوان الله عليهم كان قائماً على فهم عميق لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وملاحظاتهم الدقيقة للعلاقات القائمة بين النصوص ومدى موافقتها

---

(١) سورة النساء: ٢٩.

للواقع، وإدراكهم لمقاصد الشارع، ومزايا التشريع الإسلامي، وعلل الأحكام، وامتلاكهم ناصية اللغة، ووقوفهم على أسرار البيان العربي، وعلمهم بأحوال المجتمع، ومعرفتهم بحوادث التاريخ وأسباب النزول.

وكانوا رضوان الله عليهم يصدرون في اجتهادهم عن قلوب مفعمة بالإيمان الخالص ونور الهداية الصادق، وعن نوايا ثابتة مخلصة لخدمة الدين، وأمة الإسلام، وإظهار الحق، وبذل النصيحة في توجيه المسلمين وتعليمهم، وحل مشكلاتهم وأقضيتهم.

وكان اجتهادهم اجتهاداً بالمعنى الواسع الذي يشمل القياس والاستقراء والاستنباط، وغيره كالاستحسان، ومراعاة المصلحة، وسد الذريعة، والحكم بالبراءة الأصلية، وغير ذلك مما وضع له العلماء بعدهم مصطلحاته وقواعده الخاصة. كانوا يتأملون المسألة بعقولهم وقلوبهم ويتفكرون فيها لمعرفة وجه الصواب، وكانوا يتميزون بسعة الأفق وبملكات فقهية حاذقة، لذا جاء اجتهادهم في إطار الدين نابضاً بروحه، فياضاً بنوره.

وعلى اجتهادات الصحابة هالات إيمانية رائعة انبثقت مما عرف به الصحابة من التواضع والورع وخشية الله وتقواه، يقول أبو بكر الصديق في رأي رآه: «إني قد رأيت في الكلالة رأياً، فإن كان صواباً فمن الله

وحده لا شريك له، وإن يكن خطأ فمني والشيطان، والله منه بريء: إن الكلالة ما خلا الولد والوالد»[١]. وكتب كاتب لعمر بن الخطاب: «هذا ما رأى الله ورأى عمر»، فقال له عمر: «بئس ما قلت، قل: هذا ما رأى عمر، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمن عمر»[٢]. وقال ابن مسعود في مسألة سُئل عنها: «سأقول فيها بجهد رأيي، فإن أصبت فالله عز وجل يوفقني لذلك، وإن أخطأت فهو مني»[٣].

ولقد كان الصحابة لا يجبرون الناس على آرائهم الاجتهادية، بل تركوا باب حرية الفكر القائم على القرآن والسنة الصحيحة مفتوحاً على مصراعيه أمام العقول والقلوب، يقول عثمان بن عفان عن رأي له: «إنما كان رأياً أشرت به، فمن شاء أخذه ومن شاء تركه»[٤].

ولقد التزم الصحابة أعلى درجات الأمانة العلمية والنزاهة، فكان إذا اجتهد أحدهم فأخطأ، فاكتشف خطأه، صححه ونبه عليه في شجاعة وإيمان مخلص،

---

(١) الطبري، جامع البيان ٢٨٣/٤ ـ ٢٨٤.

(٢) ابن القيم الجوزية، أعلام الموقعين ٥٤/١.

(٣) أحمد، المسند ٧٤/٦ ـ ٧٥.

(٤) ابن القيم الجوزية، أعلام الموقعين ٥٨/١.

ولقد سُئل ابن مسعود ـ وهو بالكوفة ـ عن نكاح الأم بعد الابنة إذا لم تكن الابنة مُست ـ فأرخص في ذلك مجتهداً في فهم قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾[1]، وحين قدم المدينة، سأل عن ذلك فأخبر أنه ليس كما قال، وإنما الشرط في الربائب. فرجع إلى الكوفة، ولم يصل إلى منزله حتى أتى الرجل الذي أفتاه بذلك، فأمره أن يفارق امرأته»[2]. وهكذا تكون الأمانة العلمية، وهكذا تكون شجاعة العالم النزيه، ورحم الله الصحابة، ورحم الله ابن مسعود الذي قال: «من علم علماً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من فقه الرجل أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم»[3].

وكانت خطوات الفكر الاجتهادي عند الصحابة تبدأ من النص وتقوم عليه، والنص قرآن فسنة فإن لم يكن نص، فلا مناص من الاجتهاد في إطار الشريعة، وقد كانوا أبر الخلق قلوباً، وأخلصهم عقيدةً، وأقواهم إيماناً،

---

(١) سورة النساء: ٢٣.

(٢) مالك، الموطأ (رواية يحيى)، كتاب النكاح، باب ما لا يجوز من نكاح الرجل أم امرأته ص٣٣٠.

(٣) أحمد، المسند ٥/٢٢٧ ـ ٢٢٨.

وأعرفهم بمقاصد التشريع، وهم الذين اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ، وحمل لواء الدين من بعده، ورضي عنهم، وفي ذلك يقول ميمون بن مهران: «كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به، وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنة قضى به، فإن أعياه، خرج فسأل المسلمين، وقال: أتاني كذا وكذا، فهل علمتم أن الرسول ﷺ قضى في ذلك بقضاء؟ فربما اجتمع إليه النفر كلهم يذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاء، فيقول أبو بكر: الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ على نبينا. فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله ﷺ جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به»(١).

ويقول عمر بن الخطاب في كتابه إلى القاضي شريح: «اقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ فاقض بما قضى به الصالحون فإن لم يكن في كتاب الله ولا في سنة

---

(١) الدارمي، سننه، المقدمة، باب الفتيا وما فيه من الشدة ٦٩/١ - ٧٠ حديث رقم ١٦١.

رسول الله ﷺ ولم يقض به الصالحون، فإن شئت فتقدم وإن شئت فتأخر، ولا أرى التأخر إلا خيراً لك. والسلام عليكم»[(١)].

ويقول عبدالله بن مسعود: «فإذا سألتم عن شيء فانظروا في كتاب الله فإن لم تجدوه في كتاب الله ففي سنة رسول الله، فإن لم تجدوه في سنة رسول الله ﷺ فما أجمع عليه المسلمون، فإن لم يكن فيما اجتمع عليه المسلمون فاجتهد رأيك، ولا تقل إني أخاف وأخشى، فإن الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهة، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[(٢)].

وقال مسلمة بن مخلد لزيد بن ثابت: «يا بن عم، أكرهنا على القضاء، فقال زيد: «اقض بكتاب الله عز وجل، فإن لم يكن في كتاب الله ففي سنة النبي ﷺ، فإن لم يكن في سنة النبي ﷺ، فادع أهل الرأي ثم

---

(١) النسائي، سننه، كتاب آداب القضاة، الحكم باتفاق أهل العلم ٨/٢٣١. وانظر أيضاً: الدارمي، سننه، المقدمة، باب الفتيا وما فيه من الشدة ١/٧١ ـ ٧٢ حديث رقم ١٦٧.

(٢) الدارمي، سننه، المقدمة، باب الفتيا وما فيه من الشدة ١/٧٢ حديث رقم ١٦٨ وانظر أيضاً: حديث رقم ١٦٥ .وانظر أيضاً: النسائي، سننه، كتاب آداب القضاة، الحكم باتفاق أهل العلم ٨/٢٣٠ ـ ٢٣١.

اجتهد، واختر لنفسك ولا حرج»[١].

وروى سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبي يزيد، قال: «كان ابن عباس إذا سُئل عن الأمر فإن كان في القرآن أخبر به، وإن لم يكن في القرآن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به، فإن لم يكن في القرآن ولا عن رسول الله ﷺ وكان عن أبي بكر وعمر أخبر به، فإن لم يكن في شيء من ذلك اجتهد رأيه»[٢].

ومن ملامح المنهج العام لاجتهاد الصحابة أنه كان يقوم على أسس منها: القياس، ومراعاة المصلحة، وسد الذريعة.

والقياس عندهم ينتقل من حالة جزئية إلى حالة جزئية أخرى لوجود جامع بينهما، بواسطة تحقيق علمي دقيق قائم على فكرتي العلية والاطراد حتى يقوى الظن بأن حكم الله تعالى فيهما واحد.

وفي ذلك يقول ابن خلدون: «إن كثيراً من الواقعات لم تندرج في النصوص الثابتة، فقاسها الصحابة بما ثبت، وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين،

---

(١) البيهقي، السنن الكبرى ١١٥/١٠.

(٢) الدارمي، سننه، المقدمة، باب الفتيا وما فيه من الشدة ٧١/١ حديث رقم ١٦٦.

حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد، وصار ذلك دليلًا شرعياً بإجماعهم عليهم وهو القياس»[1].

ومعنى هذا أن القياس عند الصحابة لم يكن هو القياس الأرسطي اليوناني، بل كان المنهج التجريبي في أعظم صوره، وهو من أعظم الأفكار الإنسانية أثراً في الحضارة والتقدم، إذ لم يكن القياس عندهم هو مجرد قياس الأشباه بالنظائر ـ لأن قياس المثل أبسط أنواع الفكر الأولى ـ وإنما كان للقياس عندهم قواعد وشروط، حتى لقد تكلموا عن العلل[2]، ومن المعروف أن فكرة العلية أو قانون العلية الذي يقرر أن لكل معلول علة هو الأساس الأول للمنهج الاستقرائي، وهكذا كان للصحابة رضي الله عنهم الفضل الأول في كشف هذا المنهج التجريبي وتقديمه للإنسانية.

وأما عن مراعاة المصلحة: فلم تكن المصلحة عند الصحابة إلا المصلحة العامة للأمة الإسلامية، فكانوا يتحرون هذا الهدف، ويقيمونه داخل إطار الشرع وبما

---

(١) ابن خلدون، المقدمة ص٢١٨.
(٢) د. علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٣٤/١.
نقلًا عن: الزركشي، البحر المحيط ٥/١.

يحقق مقاصد التشريع، ولم يكن اعتبار المصلحة عندهم قائماً على الهوى أو الرأي المخالف لمقاصد التشريع.

أما عن سد الذريعة: فلقد رأى الصحابة رضوان الله عليهم أن الطريق إلى الحرام حرام، والطريق إلى الحلال حلال، والطريق إلى الواجب واجب، بمعنى أن ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام وما يؤدي إلى الحلال فهو حلال، وأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وهكذا ذهب الصحابة إلى أن الأصل في اعتبار الذرائع هو مآلات الأفعال وليس نوايا الفاعل. وعلى هذا الأساس جاء اجتهاد عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وغيرهم في توريث المبتوتة - وهي المطلقة طلاقاً بائناً - إذا طلقها زوجها وهو في مرض موته، فورثوها من تركته، لأنه - وإن كان الطلاق مباحاً مع كونه أبغض الحلال عند الله، إلا أنه قد يتخذ طريقاً متعمداً لحرمان الزوجة من الميراث، فيطلقها زوجها طلاقاً بائناً وهو في مرضه الذي يعلم أنه سيموت فيه، فيتخذ من الطلاق المباح شرعاً وسيلة إلى الانتقام من الزوجة، فرد عليه هؤلاء الصحابة بنقيض عمله، عقاباً له على استغلاله حقه المشروع في الطلاق استغلالًا سيئاً متعسفاً، ولكيلا يكون ذلك الطلاق ذريعة لحرمان الزوجة من الميراث.

أمثلة على التفسير الاجتهادي عند الصحابة:

وفي مسألة العطاء، تمسك عمر بن الخطاب بظاهر قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾[1]، ورأى عمر أنه لا بد من المفاضلة في العطاء، فليس من العدل أن يساوى في العطاء بين من بذل نفسه وماله في سبيل الله، وحارب مع رسول الله ﷺ لنصرة الدين، وبين من حارب الرسول ﷺ، وبخل بماله أن ينفقه في سبيل الله، ثم أسلم حين غلب على أمره[2]. بينما ذهب أبو بكر الصديق إلى التسوية بين الناس جميعاً في العطاء، وقال: «إن فضائل الناس عند الله، فأما هذا المعاش فالتسوية فيه خير»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾[4]، رأى عمر بن الخطاب أن الأخوة لأم لا يستأثرون بالثلث المفروض لهم بينما يحرم الأخوة والأخوات الأشقاء إذا ما استغرقت أنصبة أصحاب

(١) سورة الحديد: ١٠.

(٢) أبو يوسف، الخراج ص١٤، والماوردي، الأحكام السلطانية ص١٢٩.

(٣) أبو يوسف، الخراج ص٢٤.

(٤) سورة النساء: ١٢.

الفروض التركة كلها، ولم يبق لهم شيء منها يرثونه بالتعصيب، وهم يشتركون مع أولاد الأم في سبب الإرث وهو الأم، فهي أمهم جميعاً، وبها ورث الأخوة لأم، في حين يزيد عنهم الأشقاء قرابة من حيث كون المورث أباهم، ولا ينبغي أن تكون هذه الزيادة في القرابة سبباً لحرمانهم من الميراث، فهي إن لم تزد نصيبهم لا ينبغي أن تسقطهم، لذلك رأى عمر أن يشترك الأخوة والأخوات الأشقاء في هذه الحالة مع أولاد الأم في الثلث ويقسم عليهم جميعاً بالتساوي ويكون نصيب الذكر منهم مساوياً لنصيب الأنثى، وهذا ما يقتضيه الاستحسان لأنهم جميعاً يتساوون في الإدلاء إلى الميت بنفس الأم، وقد عرفت هذه المسألة باسم (المسألة المشتركة).

وقد ذهب بعض الصحابة إلى تفسير مخالف، ومنهم علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي بن كعب وأبو موسى الأشعري، وقد تمسكوا بظاهر النص، ورأوا أن الثلث فرض لأولاد الأم ينفردون به وحدهم ولا يشاركهم فيه الأخوة والأخوات الأشقاء إذا لم يبق لهم شيء يرثونه بالتعصيب. واحتجوا لرأيهم بأن إعطاءهم تشريكاً ينقلهم من الميراث بالتعصيب إلى الميراث بالفرض، ونقل الأقوى إلى الأضعف غير معروف في الشرع. كما أنه يلغى اعتبار قرابتهم من الأب، وإلغاء

القرابة الثابتة يعارض الشرع، ولو كان الأخوة لأم مائة ما زاد نصيبهم جميعاً على الثلث، لذا وجب ألا ينقص منهم شيء بتشريك الأشقاء معهم، وذلك عملًا بقاعدة الغنم بالغرم، فكما لا يزاد نصيبهم وجب ألا ينتقص منه، وأحياناً يرث الأخوة والأخوات الأشقاء الباقي بالتعصيب، ويكون هذا الباقي هو سدس التركة، في حين يكون في نفس المسألة أخ لأم أخذ وحده السدس فرضاً، كما في حالة من توفيت عن زوج وأم وأخ لأم وأخوة وأخوات أشقاء فللزوج النصف فرضاً، وللأم السدس فرضاً وللأخ لأم السدس فرضاً وللأخوة والأخوات الأشقاء الباقي تعصيباً وهو السدس. ففي هذه المسألة ليس لواحد من الأخوة والأخوات الأشقاء أن يقول إن نصيبه أقل بكثير من نصيب الأخ لأم، وليس له أن يقول إن نقص نصيبه راجع إلى الأب مع اشتراكه مع الأخ لأم في الأم.

ولم يقتصر اجتهاد الصحابة على تفسير آيات الأحكام فحسب. بل امتد اجتهادهم إلى آيات أخرى في موضوعات متنوعة وآفاق أرجب: ـ فعن أُبَيٍّ بن كعب ـ وقد سأله مصعب بن سعد عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾[1] ـ وقال سعد: هو حديث

(١) سورة الماعون: ٥.

أحدنا نفسه في الصلاة؟ فقال أبي: «لا، كلنا يحدث نفسه، ولكن السهو عن ترك أوقاتها»[(١)].

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾[(٢)]. قال: «إن الله سبحانه بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال جل ثناؤه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[(٣)]. ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم: مؤمناً وكافراً»[(٤)].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾[(٥)]. قال ابن عباس: «يعني لا يصعد إلى الله من عملهم شيء»[(٦)]. وفي رواية قال: «لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء»[(٧)].

---

(١) عبدالرحمن الرازي، علل الحديث ٨٢/٢.
(٢) سورة الأعراف: ٢٩، ٣٠.
(٣) سورة التغابن: ٢.
(٤) الطبري، جامع البيان ١٥٦/٨ .وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٤٠٠/٣، والسيوطي، الدر المنثور ٧٧/٣، والبيهقي، الاعتقاد ص٦٨.
(٥) سورة الأعراف: ٤٠.
(٦) الطبري، جامع البيان ١٧٦/٨ .وانظر: السيوطي، الدر المنثور ٨٣/٣.
(٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٤٠٧/٣ .وانظر: السيوطي، الدر المنثور ٨٣/٣.

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، قال ابن عباس: «أنا أول من يؤمن أنه لا يراك شيء من خلقك»[2]، وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[3]، قال ابن عباس: «من يخش الله فهو عالم»[4].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[5]. قال ابن عباس: «سوء العذاب: هي الجزية. والذين يسومونهم: محمد ﷺ وأمته إلى يوم القيامة»[6].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[7]، يفسر ابن مسعود قوله «أمرنا» بأنه «كثرنا» أي أن الله يكثر عددهم وهم مترفون فيفسقوا لأنهم كثرة غالبة يجري

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٣.
(٢) الطبري، جامع البيان ٩/٥٥ .وانظر: السيوطي، الدر المنثور ٣/١٢٠.
(٣) سورة فاطر: ٢٨.
(٤) الدارمي، سننه، المقدمة، باب في فضل العلم والعالم ١/١٠٨ حديث رقم ٣٣٣.
(٥) سورة الأعراف: ١٦٧.
(٦) الطبري، جامع البيان ٩/١٠٢، وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣/٤٩٧.
(٧) سورة الإسراء: ١٦.

المال في أيديها رغداً. يقول ابن مسعود في ذلك: «كنا نقول للحي إذا كثروا في الجاهلية: أَمِرَ بنو فلان»[1]. وهو اجتهاد طيب، في التفسير اللغوي، فالعرب تقول: أَمِرْتَ الشيء وآمرته، أي كثرته، وتقول: مهرة مأمورة أي كثيرة النتاج، وتقول: أَمِرَ بنو فلان إذا كثروا.

وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتهدون في تفسيرهم وقدموا للأجيال من بعدهم كنوزاً رائعة من الفكر الأصيل الذي يضوع منه عبق الإيمان ويترقرق النور على جنباته.

---

(١) البخاري، صحيحه، كتاب التفسير، (سورة الإسراء): ١٠٥/٦

ثبت المصادر والمراجع

١ ـ اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث. د. عفت محمد الشرقاوي.
مطبعة الكيلاني **١٩٧٢**م.

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن. للسيوطي (ت٩١١هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
الهيئة المصرية العامة للكتاب **١٩٧٤**م.

٣ ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية. للماوردي (ت٤٥٠هـ).
مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر. الطبعة الأولى **١٣٨٠**هـ / **١٩٦٠**م.

٤ ـ أحكام القرآن. للجصاص (ت٣٧٠هـ).
مطبعة الأوقاف الإسلامية بالقسطنطينية **١٣٣٥ ـ ١٣٣٨**هـ.

٥ ـ إحياء علوم الدين. للغزالي (ت٥٠٥هـ).
لجنة نشر الثقافة الإسلامية.

٦ ـ اختصار علوم الحديث. لابن كثير (ت٧٧٤هـ) وبهامشه: الباعث الحثيث. لأحمد محمد شاكر.

مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح بالقاهرة. الطبعة الثالثة ١٣٧٧هـ /١٩٥٨م.

٧ ـ الإسرائيليات في التفسير والحديث. د. محمد السيد حسين الذهبي.
دار الإيمان بدمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م.

٨ ـ الإصابة في تمييز الصحابة. لابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ).
دار الكتب العلمية ببيروت، وهي مصورة عن طبعة المطبعة الشرفية بالخرنفش بالقاهرة ١٣٢٧هـ.

٩ ـ الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي. د. أسد رستم.
طبعة الجامعة الأمريكية ببيروت ١٩٣٣م.

١٠ ـ الاعتصام. للشاطبي (ت٧٩٠هـ).
طبع بعناية: محمد رشيد رضا. المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة (د. ت).

١١ ـ الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة. للبيهقي (ت٤٥٨هـ) تحقيق: أحمد محمد مرسى.
مطبعة الشركة المصرية للطباعة والنشر بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ /١٩٦١م.

١٢ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين. لابن القيم الجوزية (ت٧٥١هـ).
مطبعة النيل بمصر (مطبعة فرج الله زكي الكردي الأزهري) ١٣٢٥هـ.

١٣ ـ الأغاني. لأبي الفرج الأصبهاني.
مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٧١هـ /١٩٥٢م.
١٤ ـ إلجام العوام. للغزالي (ت ٥٠٥ هـ).
طبعة منير.
١٥ ـ البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ).
مطبعة السعادة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ.
١٦ ـ البدء والتاريخ للمقدسي، مطهر بن طاهر (ت ٣٢٢ هـ).
طبعة باريس ١٩١٩م.
١٧ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. للآلوسي (ت١٢٧٠هـ). شرح وتنقيح: محمد بهجت الأثري.
المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الثانية ١٩٢٤م.
١٨ ـ تاج العروس. للزبيدي (ت١٢٠٥هـ).
١٩ ـ التاريخ. لليعقوبي (ت٢٨٤هـ).
دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٠م.
٢٠ ـ تاريخ الأدب العربي. كارل بروكلمان، ترجمة د. عبدالحليم النجار وآخرون.
طبعة دار المعارف بالقاهرة.
٢١ ـ تاريخ الأمم والملوك. للطبري (ت٣١٠هـ).
منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ببيروت. الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.
٢٢ ـ تاريخ التراث العربي. د. فؤاد سزجين. ترجمة د. محمود فهمي حجازي.

طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
٢٣ ـ تاريخ الفكر العربي. د. عمر فروخ.
دار العلم للملايين ببيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٣م.
٢٤ ـ التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق. لابن البطريق.
بيروت ١٩٠٥م.
٢٥ ـ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي. للسيوطي (ت٩١١هـ). تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف.
المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ ١٩٧٣م.
٢٦ ـ تفسير تنوير المقباس المنسوب إلى ابن عباس. توثيق ودراسة د. إبراهيم محمد عوض النجار.
رسالة دكتوراه قدمت إلى كلية الآداب جامعة القاهرة ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م. نسخة مهداة بالآلة الكاتبة.
٢٧ ـ تفسير القرآن العظيم. لابن كثير (ت٧٧٤هـ). تحقيق: عبدالعزيز غنيم، ومحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البنا.
طبعة دار الشعب بالقاهرة.
٢٨ ـ تفسير ابن مسعود، جمع وتحقيق ودراسة. د. محمد عيسوي.
رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب جامعة القاهرة ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م. نسخة مهداة بالآلة الكاتبة.

٢٩ ـ تفسير النسائي (ت٣٠٣هـ). تحقيق: صبري بن عبدالخالق الشافعي، وسيد بن عباس الجليمي.
مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ /١٩٩٠م.
٣٠ ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ).
مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن بالهند، الطبعة الأولى ١٣٢٦ هـ.
٣١ ـ التوارة. تاريخها وغاياتها. سهيل ذيب.
دار النفائس ببيروت، الطبعة السادسة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
٣٢ ـ الجامع لأحكام القرآن. للقرطبي (ت٦٧١هـ).
طبعة دار الكتب المصرية.
٣٣ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. للطبري (ت٣١٠هـ).
مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة. الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م. وقد رجعت لبعض الأجزاء من طبعة دار المعارف بالقاهرة التي قام بتحقيقها الشيخ أحمد محمد شاكر، وأشرت إلى ذلك في الهوامش.
٣٤ ـ الجامع الصحيح، للإمام البخاري (ت٢٥٦هـ).
طبعة دار الشعب بالقاهرة.
٣٥ ـ الجامع الصحيح وهو المعروف بسنن الترمذي (ت٢٧٩هـ). حقق الجزء الأول منه: عبدالوهاب عبداللطيف، وحقق الأجزاء الباقية من الثاني إلى الخامس: عبدالرحمن محمد عثمان.

ونشرته المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.
٣٦ ـ جمهرة أنساب العرب. لابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ)
تحقيق: عبدالسلام هارون.
دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٤م.
٣٧ ـ الحديث والمحدثون. د. محمد أبو زهو.
دار الكتاب العربي، ببيروت ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م.
٣٨ ـ الخراج لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت١٨٣هـ).
المطبعة الأميرية ببولاق، الطبعة الأولى ١٣٠٢هـ.
٣٩ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للسيوطي (ت٩١١هـ).
دار المعرفة. بيروت.
٤٠ ـ ديوان الأعشى.
دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ /١٩٨٣م.
٤١ ـ ديوان بشر بن أبي خازم.
دمشق ١٩٦٠م.
٤٢ ـ ديوان حسان بن ثابت.
المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٧هـ.
٤٣ ـ ديوان عنترة بن شداد.
ضمن مجموعة العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين. طبع ليدن.
٤٤ ـ ديوان لبيد بن ربيعة.
الكويت ١٩٦٢م.

٤٥ ـ الرسائل. للجاحظ (ت٢٥٥هـ).
٤٦ ـ زاد المسير في علم التفسير. لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ).
المكتب الإسلامي للطباعة والنشر. دمشق، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م.
٤٧ ـ السنن للدرامي (ت٢٥٥هـ). تحقيق: فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي.
دار التراث بالقاهرة، ودار الكتاب العربي ببيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.
٤٨ ـ السنن. لأبي داود (ت٢٧٥هـ). تحقيق: أحمد سعد علي.
مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.
٤٩ ـ السنن. لابن ماجه(ت٢٧٥هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.
مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ /١٩٦٧م.
٥٠ ـ السنن. للنسائي (ت٣٠٣هـ). بشرح السيوطي (ت٩١١هـ). وحاشية السندي (ت١١٣٨هـ).
دار الحديث بالقاهرة ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.
٥١ ـ السنن الكبرى. للبيهقي (ت٤٥٨هـ).
دار الفكر.
٥٢ ـ السيادة العربية والشيعة والإسرئيليات في عهد بني أمية.
فان فلوتن. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكي إبراهيم.

مطبعة السنة المحمدية، الطبعة الثانية.
٥٣ ـ السيرة النبوية. لابن هشام (ت٢١٣هـ). تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبدالحفيظ شلبي.
مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ /١٩٥٥م.
٥٤ ـ شرح القصائد العشر، للخطيب التبريزي (ت٥٠٢هـ).
تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد.
مكتبة محمد علي صبيح بالقاهرة. الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ /١٩٦٤م.
٥٥ ـ شعب الإيمان. للبيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول.
دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
٥٦ ـ الصابئة المندائيون. الليدي دراوور. ترجمة: نعيم بدوي، وغضبان رومي.
مطبعة الديواني ببغداد، الطبعة الثانية ١٩٨٧م.
٥٧ ـ صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ).
بشرح النواوي.
المطبعة المصرية ومكتبتها بالقاهرة ١٣٤٩هـ.
٥٨ ـ علل الحديث. لعبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت٣٢٧هـ). تحقيق: محب الدين الخطيب.
مكتبة المثنى ببغداد.

٥٩ ـ العمدة. لابن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ). تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد.
المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٣٨٣هـ /١٩٦٣م.
٦٠ ـ العهد القديم.
٦١ ـ غاية النهاية في طبقات القراء. لابن الجزري (ت٨٣٣هـ). نشر: ج. برجستراسر.
مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٣٢م.
٦٢ ـ فتح الباري. لابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ). تحقيق: محب الدين الخطيب، وقصي محب الدين الخطيب، ومحمد فؤاد عبدالباقي.
المطبعة السلفية بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.
٦٣ ـ فتح المغيث بشرح ألفية الحديث. للعراقي، (ت٨٠٦هـ). تحقيق: محمود ربيع.
دار الكتب السلفية بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
٦٤ ـ فجر الإسلام. أحمد أمين.
مكتبة النهضة المصرية (د.ت).
٦٥ ـ فقه اللغة. للثعالبي.
٦٦ ـ الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف. لابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ).
المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة. الطبعة الأولى ١٣٥٤هـ.

٦٧ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. للزمخشري (ت٥٣٨هـ). ترتيب وضبط: مصطفى حسين أحمد.
دار الريان للتراث بالقاهرة، ودار الكتاب العربي ببيروت. الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.
٦٨ ـ الكفاية في علم الرواية. للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ).
المكتبة العلمية بالمدينة المنورة (د. ت).
٦٩ ـ لسان العرب. لابن منظور (ت٧١١هـ). تحقيق: عبدالله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي.
دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٩م.
٧٠ ـ مذاهب التفسير الإسلامي. اجنتس جولد تسيهر. ترجمة: د. عبدالحليم النجار.
دار اقرأ، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.
٧١ ـ المزهر في علوم اللغة. للسيوطي (ت٩١١هـ).
٧٢ ـ المستدرك على الصحيحين. للحاكم (ت٤٠٥هـ).
مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن بالهند، الطبعة الأولى ١٣٣٤ ـ ١٣٤٢هـ.
٧٣ ـ المسند. للإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ).
المطبعة الميمنية بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣١٣هـ / ١٨٩٥م.
٧٤ ـ المصنف. لعبدالرزاق بن همام الصنعاني (ت٢١١هـ). تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

المجلس العلمي، الهند، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
٧٥ ـ مطلع النور. عباس محمود العقاد.
دار النهضة مصر للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٧٧م.
٧٦ ـ المعارف. لابن قتيبة(ت٢٧٦هـ).
٧٧ ـ معالم التنزيل. للبغوي (ت٥١٦هـ).
مطبعة التقدم العلمية بالقاهرة ١٣٤٩هـ.
٧٨ ـ معرفة علوم الحديث. للحاكم (ت٤٠٥هـ). تحقيق: د. السيد معظم حسين.
القاهرة ١٩٣٧م.
٧٩ ـ مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة. للسيوطي. تحقيق: عبدالرحمن فاخوري.
دار السلام بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٨٠ ـ المقدمة. لابن خلدون(ت٨٠٨هـ).
٨١ ـ المقدمة لابن الصلاح(ت٦٤٣هـ). تحقيق: د. عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء).
مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٤م.
٨٢ ـ الملل والنحل. للشهرستاني (ت٥٤٨هـ). تحقيق: محمد سيد كيلاني.
مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.
٨٣ ـ المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب. للسيوطي

(ت٩١١هـ). تحقيق: د. إبراهيم محمد أبو سكين.
مطبعة الأمانة بالقاهرة ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م.
٨٤ ـ الموطأ. للإمام مالك (ت١٧٩هـ). رواية يحيى بن يحيى الليثي. (ت٢٣٤هـ). تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.
طبعة دار الشعب بالقاهرة.
٨٥ ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. د. علي سامي النشار.
دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الثامنة ١٩٧٧م.
٨٦ ـ نيل الأوطار. للشوكاني(ت١٢٥٠هـ).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة